الشيخ احمد بن مصطفى العلاوي

المواد الغيثية

الناشئة
عن الحكم الغوثية

الجزء الثاني

الطبعة الأولى

المطبعة العلاوية بمستغانم

حقوق الطبع محفوظة للطبعة العلاوية
بمستغانم

سنة 1994

رقم التسجيل : 87 / 2460

بسم الله الرحمان الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى من :

المواد الغيثية الناشئة عن الحكم الغوثية

الحمد لله الذي تجلى بصفاته حكمة وعلما ، فعلمه من اصطفاه لحضرته ظاهرا وباطنا ، وجهله من أعرض عنه إلحادا وظلما ، سبحانه المنزه عن التقييد ، الظاهر بسلطانه وجلاله في حقيقة التوحيد (**وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون**) « الذاريات : 21 »

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له عجزت عن إدراكه أفكار العبيد ، وشاهده المقربون في القريب والبعيد .

وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله المصطفى لحمل رسالة التبليغ ، شرح الله به الصدور ، وأخرج الناس من ظلمات الكفر إلى النور ، فصل اللهم على النور المبين ، والسراج المنير ، والصراط المستقيم وعلى آله وأصحابه ووارثيه وسلم تسليما .

وبعد . فإن المكتبة الدينية للطريقة العلاوية ، لا تزال تواصل التحقيق والبحث عن تراث الأستاذ الكبير مولانا أبي العباس أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي - رضي الله عنه - باعتباره جزءاً من التراث الثقافي الجزائري المعاصر ، وقد ساهم الأستاذ بنصيب وافر في تاريخ النهضة الجزائرية في ميدان الإصلاح الديني والإجتماعي والثقافي ، تشهد له بذلك آثاره التي تحتاج إلى الدرس والتعريف .

- **ترجمة موجزة للمؤلف :** هو الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي (ولد سنة : 1870 م – وتوفي سنة : 1934 م) (1) عمدة السالكين ، ومربي العارفين المشهور بتلقين الإسم الأعظم. أسس طريقته الصوفية (سنة : 1914 م) وهي فرع من الطريقة الدرقاوية الشاذلية ، كرس حياته للتربية والإرشاد والإصلاح الديني والإجتماعي ، فأسس عدداً من الزوايا لأتباعه ومريديه بلغت (50 زاوية) منها (21 زاوية) في الجزائر. والباقي في المغرب وتونس ، والمشرق وأروبا. وفي سنة « 1923 » أنشأ جريدة « لسان الدين » الاسبوعية ، ثم جريدة « البلاغ الجزائري » سنة : 1926 م لنشر آرائه الاصلاحية في الدين والأخلاق والاجتماع ، كما ترك مجموعة من الآثار العلمية معظمها في التصوف والفقه والتفسير، نشر بعضها في حياته ، وبقي الآخر مخطوطا ، منها هذا الجزء الثاني من كتاب «المواد الغيثية...» الذي نقدمه للنشر ، تناول فيه بالشرح والتحليل (مائة حكمة وواحدة) من حكم الشيخ أبي مدين الغوث : شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي البجائي دفين تلمسان « العبّاد » المتوفي سنة : 594 هـ / 1197 م (2) ، وهو

---

1) راجع ترجمة الشيخ في الأعلام : للزركلي 1 / 243 – الأعلام الشرقية : 2 / 93 . أصاميم المد الساري لصحيفة البلاغ الجزائري : الجزء الأول ط طنجة 1986 .

– الروضة السنية في المآثر العلاوية : للشيخ عدة بن تونس . ط مستغانم 1936 .

– معجم أعلام الجزائر : عادل نويهض « الملحق : 367 » .

– الشيخ أحمد العلاوي الصوفي . . . مارتن لينجز . ترجمة محمد المعتصم الموافي : ط بيروت 1973 .

2) راجع ترجمة الشيخ أبي مدين في : – شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث : د / عبد الحليم محمود .

– البستان . . . لابن مريم ص 108 – 114 – ابن الخطيب القسنطيني : أنس الفقير وعز الحقير . ط الرباط

– دائرة المعارف الاسلامية : 1 / 141 – 142 . – نفح الطيب : للمقري – نيل الابتهاج . . . لأحمد بابا التنبكتي . – المواد الغيثية . . . الجزء الاول « المقدمة » ط مستغانم .

– عنوان الدراية . . . للغبريني – تحقيق : رابح بونار ط الجزائر – 1970 .

في طريقه من بجاية إلى مراكش بأمر من سلطان أبي يوسف يعقوب الموحدي، وقبره ما يزال قبلة للزوار يستجاب عنده الدعاء.

- **محتوى هذا الجزء :** يتضمن الجزء الثاني من المخطوط عشرة فصول حسب تقسيم المؤلف، أولها : (في التوكل...) وآخرها في (الخمول وفضائله) أي من الفصل العاشر حتى الثامن عشر، شارحا لمقامات العارفين من أهل السلوك، معربا عن حقيقة التوحيد عند القوم - رضوان الله عليهم - مستشهدا بأقوال وأحوال أهل العرفان شعراً ونثراً، وختم الشرح بحكمة أبي مدين - رضي الله عنه - حيث يقول : « من لم يقم بأدب البداية، كيف تستقيم له دعوى مقامات النهاية ».

وصف المخطوطة

1 - يبدأ الجزء الثاني من المخطوطة من صفحة « 107 » وينتهي بصفحة « 238 » عدد الصفحات « 132 ص ».

2 - عدد السطور في كل صفحة « 33 سطرا ».

3 - مسطرة المساحة المكتوبة « 26 × 16 سم ».

4 - والناسخ مجهول وتاريخ النسخ 30 رمضان عام 1328 هـ = 24 سبتمبر 1910. ولعلها بخط الشيخ « أحمد العلاوي » نفسه.

5 - والكتابة بخط مغربي واضح، قليل الأخطاء إلا نادراً، والمخطوطة تامة من أولها إلى آخرها، تحت ملكية الزاوية الكبرى بمستغانم. وعليها كان اعتمادنا في التحقيق « أي الصورة المصورة عنها ».

6 - يتضمن الجزء الثاني عشرة فصول شرح فيها « 101 حكمة » من مجموع « 178 حكمة » من حكم الإمام الرّباني « أبي مدين الغوث » - رضي الله عنه - موزعة على ثمانية عشر فصلا.

عملنـــا في التحقيـــق

1 – قمنا بضبط الحكم بالشكل التام مفصوله عن الشرح بخط مغاير .

2 – عملنا على تخريج الآيات بذكر السورة ورقم الآية بخط بارز مغاير للنص، وكذلك بالنسبة للأحاديث النبوية.

3 – قمنا بتصحيح النصوص الشعرية بالرجوع إلى المصادر والدواوين في حين لم نتمكن من تصحيح بعضها لعدم معرفة أو جهل قائلها ، ولم ندخل تغييراً على النص الأصلي إلا ما يقتضيه السياق اللغوي والرسم الإملاىء .

4 – يجد القارىء وصفا للمخطوطة المعتمدة في هذه الطبعة وهي المخطوطة الوحيدة التي تملكها المكتبة العلاوية بالزاوية الكبرى بمستغانم.

وأسأله تعالى أن يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم ، ولا يؤاخذنا عما فيه من الخطأ والتقصير ، ويلهمنا السداد والرشاد إلى ما فيه خير العباد إنه سميع مجيب .

وصل اللهم على نبيك في البدء والختم سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم والحمد لله رب العالمين .

الأستاذ : يحي الطاهر برقة

وهران : 10 مايو 1993 م

الفصـــل التـاســع

في التوكل على الله عز وجل

قال رضي الله عنه:

التَّوَكُّلُ تَوَكُّلٌ بِالْمَضْمُونِ وَاسْتِبْدَالُ الحَرَكَةِ بِالسُّكُونِ

حقيقة التوكل هو ثقة العبد بربه، واكتفاؤه بمشيئته، وسكون القلب عند ما قسم له، وعدم التشوق لما وراء ذلك، فلا تتكلف أيها المريد لذلك، فقد قام به غيرك عليك، لما قيل في الحكم العطائية: « أرح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك ». وفائدة التوكل هي استراحة القلب من تعب التدبير المنغص للعيش، وهو سر من أسرار الله يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده، فيكتفى ذلك القلب بتدبير الحق عن تدبيره، وباختيار الحق عن اختياره، وبعلم الحق عن علمه قائلا: (**لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله**) « يونس: 49 » فتحصل له الراحة الأبدية ويصير محمولا على بساط التوكل قائلا: ما قام به الحق سقط عن الخلق. فيجب عَلَيَّ القيام بما لم يسقط. قال تعالى مخبراً للمتوكلين: (**لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى**) « طه: 132 » (**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**) « الطلاق: 3 ». فكن يا أخي واثقا بالله في رزقك، وما كان لك سوف ياتيك على ضعفك، وما ليس لك لا تناله بقوتك، فالذي قام بك قبل الوجود وأظهرك للشهود لا زال متكفلا بك، هلا تترك له التدبير! فهو أولى بك من نفسك قال بعض المتوكلين:

ثق يا قلبي بالله ☆ فهو المعطي المانع
وارض بـأحكام الله ☆ إنـك لله راجـع
مـا ذا في علم الله ☆ والخير في الـواقع
تدبيرك ما يسواش ☆ من تدبيرك دعني

وقلنا في ذلك:

ألا في سكون القلب خير ونعمة ☆ وسر وأدب مـــع الله لا يخفى
ومـن ليس لـه مع الله ثقـة تراه ☆ في ضيق وتبريح من الحرص لا يكفى

يقول الحق تبارك وتعالى في بعض كلامه:
(يا عبدي إذا سلمت لي فيما أريد أعطيتك ما تريد، وإذا لم تسلم لي فيما أريد، أتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد).

ثم اعلم أن التوكل لا ينافي الكسب، إنما ينافي اشتغال القلب بالمضمون لما فيه من عدم الثقة بالله والمنازعة لأحكام الربوبية، وكل ذلك يعود على العبد بضد ما دبره لنفسه، ويكون ذلك سببا في تكدر عيشه. قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: « ذروا التدبير والاختيار فإنهما يكدران على الناس عيشهم » وقال سيدي أبو الحسن الشاذلي: « إن كان ولابد أن تدبروا فدبروا أن لا تدبروا » وقد أفرد ابن عطاء الله – رضي الله عنه – في هذا المعنى كتابا وسماه « التنوير في إسقاط التدبير » وقد جمع فيه ما يغني المريد عن مطالعة ما دونه في هذا الفن، فيتعين مراجعته على كل منتسب لطريق القوم.

ثم قال رضي الله عنه:

تَوَكَّلْ عَلَى اللهِ حَتَّى يَكُونَ الغَالِبُ عَلَيْكَ ذِكْرُهُ عَلَى ذِكْرِكَ، فَإِنَّ الخَلْقَ لَنْ يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا

توكل أيها المريد على الله في أمورك، واسلب لـه الإرادة في شؤونك، واشتغل بذكره وتسبب في قربه حتى يصير ذكرك له غالبا على ذكرك لنفسك بسبب امتزاجه بلبك وسرك ودمك ولحمك. فإذا تحقق لك ذلك يكون دليلا على قربك من الله، حيث أجرى ذكره على لسانك، بل حتى برز من قلبك بدون تكلف منك. قال في الحكم العطائية: « أكرمك بكرامات ثلاثة: جعلك ذاكرا له، ولولا فضله لم تكن أهلا لجريان ذكره عليك، وجعلك مذكورا عنده فتمم نعمته عليك ». وإذا لم تتوكل أيها المريد عليه وتغيب في ذكره عن ذكرك، وتسير على هذا المنوال بل استبدلت ذكره بذكر ما سواه كائنا من كان فإنك تهلك، لأن الخلق لا يغنوا عنك من الله شيئا، وكفى بك جهلا أن تتعلق بمن هو أحوج منك، أي شيء ينفعك الخلق وهم مخلوقون مثلك، وهل يستطيع يرفع عنك ما نزل بك ممن لم يستطيع أن يرفع عن نفسه ما نزل به **(إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له)** « الحج : 73 » **(أموات غير أحياء)** « النحل : 21 » قال بعضهم : « من شهد الخلق لا فعل لهم فقد فاز ، ومن شهدهم لا حياة لهم فقد حاز، ومن شهدهم عين القدم فقد وصل ». وقد قلت :

تـوكلت على الإلـه في كل حالـة ☆ وإيـاك والمخلـوق تركـن لفعله
فإن النـاس أموات كلا فما ترى ☆ عاجز ومضطرب فقير في نفسه

ثم قال رضي الله عنه:

العَبْدُ مَنِ انْقَطَعَتْ آمَالُهُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ مَوْلاَهُ

وكيف لا تنقطع آماله مما سوى الله وقد انعدمت الأشياء في نظره، فهو لا يرى للخلق ثباتا حتى يحصل له الالتفات، فلهذا انقطع أمله واجتمعت همته على الله فلا يؤمل سواه، ولا يرجى عداه، بل الكل يشتاق إليه ويرضاه، فهذا هو العبد إلى الله، وما سواه رق لغيره. فكل من كان أمله في شيء، فذلك حظه من مولاه، ومن انقطع أمله من كل شيء، فلا جرم يتولاه الله وهو يتولى الصالحين.

ثم قال رضي الله عنه:

هِمَمُ العَارِفِينَ لاَ تَسْمُو لِغَيْرِ مَعْرُوفِهِمْ

وكيف تسمو لغيره، والغير عندهم مفقود، أم كيف تتشوف لسواه وكل ما تهواه في ذاته موجود. فكل ما تهوى العشاق موجود في ذات الخلاق.

جمعت في حسنك المطالب ☆ فما لنا للسوى نظر
وكل شيء نراه غائب ☆ لما بدا وجهك الأغر
يا سيداً كلما تجلى ☆ إلى محب له خضع
وكل حسن بكم تجلى ☆ طوبى لمرء بك اجتمع

سبحان من جمعت فيه المحاسن، فمن عرف الله لا يلتفت لغيره لأنه يجد فيه كل ما يحتاج إليه لما قيل:

«ففي وجه من تهوى الفرائض والنفل»

ثم قال رضي الله عنه:

هِمَمُ العَارِفِينَ لاَ زَالَتْ عَاكِفَةً عَلَى مَوْلاَهَا

وكيف لا تعكف على مولاها وقد عدمت الغير وفرغت من كل شيء، ولم يبق لها أدنى شيء، حطت رحالها في حضرته وعكفت عن مشاهدته، ليس لقلوبهم أدنى التفات، وإن التفتت وجدوا لسان الموجودات قائلا: **(فأينما تولوا فثم وجه الله)** «البقرة: 115» وفي ذلك قالوا:

همم العارفين بالله علقت ☆ فما لهم همة ترقى إلى أحد
مطلبهم قد فاق المطالب جملة ☆ همتهم جاوزت مقاصد العُبَّادِ
وقفت ببابه تنتظر لوجهته ☆ عكفت في قربه لا تنظر لأحد

منذ وصلوا ما رجعوا، فهم قوم اصطنعهم الحق لنفسه، وكيف يمكن أن تعكف همتهم على غيره. «كل ميسر لما خلق له».

ترى العارفين مع الخلق في معاملتهم ومجالستهم ومحادثتهم كأنك تحسب أنهم مع الخلق، كلا إنما هم مع الحق، فكل يرى حسب نظره. **(تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل)** «الرعد: 4» المشهود واحد واختلفت المشاهد. والعارفون لم تزل همتهم عاكفة على الله في كل وقت وحال، وأنت لا تدري كيف كان عكوفهم على الحق، كان كما كان عكوفك أنت مع الخلق. قال مولانا عبد القادر الجيلي رضي الله عنه:

~~فؤادي عند حبيبي مقيم ☆ يناجيه وعندكم لساني~~

كان ﷺ يتكلم مع سيدنا جبرائيل والناس تظن أنه يتكلم مع

دحية الكلبي. فكان دحية عند من نظره دحية لا عند من عرفه جبرائيل. ولسلطان العاشقين في هذا المعنى:

وها دحية وافى الأمين نبينا ☆ بصورته في بدإ وحي النبوءة
أجبريل قل لي كان دحية إذ بدا ☆ لمهدى الهدى في هيئة بشرية
وفي علمه عن حاضريه مزية ☆ بماهية المرئي من غير مرية
يرى ملكا يوحي إليه وغيره ☆ يرى رجلا يدعى إليه بصحبة

وهذا المعنى خارج عن العقل لا يطلب فيه الدليل.

فثم وراء العقل علم يدق عن ☆ مدارك غاية العقول السليمة

ظاهر ولكن لا يدرك إلا بعد صفاء السرائر، وافتتاح البصائر وفناء الأشياء باطنا وظاهرا، كما قال شيخ مشايخنا سيدي أبو عزة المهاجي رضي الله عنه:

ولم يدركها ذو العقل إلا إذا فنى ☆ عن الأشياء كلها يراها تشعشع

ثم قال رضي الله عنه:

العَبْدُ يَيْأَسُ مِنَ الْفَرَحِ إِلَّا مِنْ مَوْلَاهُ

أي المتحقق بحقيقة العبودية، فهذا هو العبد لله حقيقة، فليس له فرح إلا بالله، فهو آيس من أن يفرح بغيره لعدم الغير في نظره، وهذا هو الفاني عن الكل، فلا يمكن له أن يفرح بغيره.

قيل: إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى داود عليه السلام: (**يا داود قل للصديقين بي فليفرحوا، و بذكري فليتنعموا**). ولبعضهم:

أجل أجلى أرضي انقضاه صيانة ☆ ولا وصل إن صحت لحبك نسبتي

وإن لم أفز حقا إليك بنسبة ☆ لعزتها حسبي انتحاراً لتهمتي

قيل: إن عتبة الغلام دخل في بعض الأيام على رابعة العدوية رضي الله عنها، وعليه قميص جديد وهو يتبختر في مشيه بخلاف ما سبق من عادته، فقالت له: يا عتبة ما هذا التيه والعجب الذي لم أره في شمائلك قبل اليوم؟ فقال: يا رابعة ومن أولى بهذا التيه مني، وقد أصبح لي مولى وأصبحت له عبداً.

قوم تخللهم زهو بسيدهم ☆ والعبد يزهو على مقدار مولاه
تاهوا برؤيته عما سواه له ☆ يا حسن رؤيتهم في حسن ما تاهوا

وقيل: إن الصوفية اتخذوا الرقص من هذا القبيل كما ذكره ولي الله سيدي محمد بن عبد الله:

فغن يا صوفي وارقص في أمن ☆ واشطح لقد وصفت بالدلال
أنت محبوب الحضرة دون مين ☆ ومرغوب لها فلا تبالي

وقيل: إن بعض الفقهاء كان ينكر على صوفي في رقصه، فدخل الصوفي على الفقيه ذات يوم فوجده يرقص في بيته، فقال له الصوفي: ما هذا الرقص؟ فقال له: إني وجدت بعض النصوص كنت ضللتها منذ أيام، فلما وقعت بيدي لم أبال حتى رقصت فرحا. فقال له الصوفي: فوا عجبا لمن يرقص إذا وجد شيئا يمكن بدله وذلك نصوص، وقد دونت مثلها دواوين، وينكر على من وجد الحق وتعرف له، وأصبح عنه راضيا إذا رقص.

أما تنظر الطير المقنص يا فتى ☆ إذا ذكر الأوطان حنَّ إلى المغنى
يفرج بالتغريد ما بفؤاده ☆ فتضطرب الأعضاء في الحس والمعنى
ويرقص في الأقفاص شوقا إلى اللقا ☆ فتهتز أرباب العقول إذا غنى

كـذلك أرواح المحبين يـا فتى ☆ تهززهـا الاشـواق للعـالم الأسنى
أنلزمهـا بـالصبر وهي مشوقـة ☆ وهل يستطيع الصبر من شاهد المعنى

فهذا حال الواصل، وكذلك المستشرف ييأس من الفرح إلا من مولاه لحقارة الأشياء في نظره، وإنها عرض زائل، فهو لا يفرح إلا بالباقي (**فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون**) « يونس: 58 ».

الفصـل العـاشـر

في الفقـر وحقيقتـه وفضائلـه

قال رضي الله عنه:

الفَقْـرُ فَخْـرٌ

الفقر فخر العارفين، وكيف لا وقد افتخر به سيد المرسلين واتصف به وانتمى إليه، وقد كان يقول: (**الفقر فخري**) يا له من نبي كريم بالمؤمنين رءوف رحيم، وما أحسن ما قيل في مدحه:

وليس يدرك أدنى وصفه بشر ☆ أيقطع الأرض ساع وهو مكبول
كل البلاغة عي في مناقبه ☆ إذا تفكرت والتيسير تقليل
لو أجمع الخلق أن يحصوا مناقبه ☆ أعيتهم جملة منها وتفصيل
عذراً إليك رسول الله من كلمي ☆ إن الكريم لديه العذر مقبول

ولا تخفى على العاقل سيرته وسيرة أصحابه ومن انتمى إليهم إلى يومنا هذا، ولو لم يكن الفقر فخرهم لما جعلوه علما على المنتسب

إليهم بمجرد الانخراط في سلكهم يلقبونه بالفقير، ولو كان من أغنى الأغنياء. وهل هذا إلا افتخار الفقراء، وهو أمان على التوحيد والناس فيه مراتب، صابر ومتلذذ، والفرق واضح، والكل يمدحه حسب ما كشف له عن فضائله. كان يقول الإمام الشافعي رحمة الله عليه: «لا شيء أزين للعلماء من الفقر والقناعة والرضى بهما». وقال أيضا: «لا عيب للعلماء أقبح من رغبتهم فيما زهدهم الله فيه». وكان يقول: «طلب الفضول الدنيا عاقب الله بها أهل التوحيد». وما أحسن ما قيل:

النفس تأبى أن تكون فقيرة ☆ والفقر خير من غنى يطغيها
فغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت ☆ فجميع ما في الأرض لا يكفيها

وقال غيره:

تمتع بما يكفيك واستعمل الرضى ☆ فإنك لا تدري أتصبح أم تمسي
فليس الغنى عن كثرة المال إنما ☆ يكون الغنى والفقر من قبل النفس

قلت:

لو كانت النفس تعلم ما في الفقر من شرف ☆ لحنت إليه حنين الطير للوكر

قال ﷺ: (**ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب: رجل أراد أن يغسل ثوبه فلم يجد له خلفة يلبسها، ورجل لم ينصب على مستوقده قِدْرَيْنِ، ورجل طلب شرابه فلم يقل له أيهما تريد**). اهـ

وروي عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - أنه قال: (**لأن أقع من فوق قصر فأنحطم أحب إلي من مجالسة الأغنياء، لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إياكم ومجالسة الموتى، قيل:**

يا رسول الله ومن الموتى؟ قال: الأغنياء).

فإن وقع صدق هذا الحديث في قلبك، وعرفت أن الفقر نور، وأن الغنى ضده فهو دونه في الرتبة، وإن كان محموداً من وجوه، فكيف لا يكون الفقر فخر العارفين. قال في الحكم العطائية: «إن أردت ورود المواهب عليك، فصحح الفقر والفاقه لديك». (**إنما الصدقات للفقراء**) «التوبة: 60» ومن افتخارهم بالفقر ما يحكى عن عطاء السلمي - رضي الله عنه - أنه بقي سبعة أيام لم يذق شيئا من الطعام، فسر قلبه بذلك غاية السرور وقال: «يا رب إن لم تطعمني ثلاثة أيام أخر لأصلين لك ألف ركعة».

كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في غاية الزهد، وأن قميصه كان فيه أربع رقعات، ومن افتخاره بالفقر: أنه أبطأ يوما عن الخروج لصلاة الجمعة وهو خليفة، وعندما خرج اعتذر للناس وقال إنما حبسني عنكم ثوبي هذا كان يغسل وليس عندي غيره. وقيل: إنه كان يبرد في الشتاء حتى ترعد مفاصله، فقيل له: ألاَّ تأخذ من بيت مال المسلمين كساء فإنه أوسع، فقال: لا أنقص للمسلمين من بيت مالهم شيئاً.

وقيل: إن فتحاً الموصلي - رضي الله عنه - دخل إلى بيته ليلة فلم يجد فيها أكلاً ولا شرابا، ولا حطبا، ولا سراجا، فأخذ يحمد الله عز وجل ويقول: «إلاهي لأي سبب وبأي وسيلة استحققت ذلك حتى عاملتني بما عاملت به أوليائك».

الفقر منوط بالولاية في الغالب، وقد كان أغلبهم يتسبب فيه. ومن نعتهم لبس المرقعة وترك الكسب، وغير ذلك مما يقتضيه. كان الإمام علي - كرم الله وجهه - يرفع قميصه ويقول: «إن لبس

وليس يدرك أدنى وصفه بشر ☆ أيقطع الأرض ساع وهو مكبول
كل البلاغة عي في مناقبه ☆ إذا تفكرت والتيسير تقليل
لو أجمع الخلق أن يحصوا مناقبه ☆ أعيتهم جملة منها وتفصيل

المرقع يخشع القلب » وقد كانوا يتسببون فيما يصلح بواطنهم، أعني هو وصحابة رسول الله ﷺ. ومن قوله رضوان الله عليه:

حقيق بالتواضع من يموت ☆ ويكفي المرء من دنياه قوت
فما للمرء يصبح ذا هموم ☆ وحرص ليس تدركه النعوت
فيا هذا سترحل عن قريب ☆ إلى قوم كلامهم السكوت

ومن النصائح النبوية قوله ﷺ: (**أيها الناس اذكروا هادم اللذات، فإنكم إذا ذكرتموه في ضيق وسعه عليكم، وإن ذكرتموه في غنى بغضه إليكم، إن المنايا قاطعات الآمال، والليالي مدنيات الأجال، وأن العبد بين يومين: يوم مضى أحصي فيه عمله فختم عليه، ويوم قد بقى لا يدري لعله لا يصل إليه، وإن العبد عند خروج نفسه وحلول رمسه يرى جزاء ما أسلف، وقلة غنى ما خلّف، أيها الناس إن في القناعة لغنى، وإن في الاقتصاد لبلغة، وإن في الزهد لراحة، وإن لكل عمل جزاء، وكل آت قريب**).

ثم قال رضي الله عنه:

الفَقْرُ نُورٌ مَا دُمْتَ تَسْتُرُهُ فَإِذَا أَظْهَرْتَهُ ذَهَبَ نُورُهُ

قلت:

الفقر نور يضيء على الفتى ☆ وهو له عز ما دام مكتوما
ومن أفشاه للخلق باء بضده ☆ وكان له ذلا ووصفا مذموما

الفقر فخر العارفين، وعز الواصلين، وسنة المريدين، وهو نور

لصاحبه ما دام يستره عن الخلق، فإذا أظهره ذهب نوره وانكشف شعاعه، وصار مذلة وإهانة بعد أن كان عزا وإعانة بسبب إظهاره، وما أظهره إلا ليستشرف الناس عليه ليتوصل لغرض من الأغراض التي لا تزيد له في رزقه إلا ضيق الحال وتعسر المنوال، والإياس عما في أيدي الناس غني، مع وجود الفقر. وقد مدح الله عز وجل من قطع نظره عن الخلق وعن الشكاية لهم بقوله: (**يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً**) « البقرة: 273 » لاكتفائهم بقسمتهم من الله (**نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا**) « الزخرف: 32 » فصار الفقر لهم نوراً يمشون به في الناس.

ثم قال رضي الله عنه:

الفَقْرُ أَمَانٌ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَدَلاَلَةٌ عَلَى التَفْرِيدِ، الفَقْرُ أَنْ لاَ تَشْهَدَ عَيناً سِوَاهُ

هذا بيان للفقر الخاص، وليس المراد به فراغ اليد من الدنيا، إنما هو فراغ القلب مما سوى الرب، فهذا هو الفقير إلى الله من كل الوجوه المضطر إليه، ومن أجل هذا كان أماناً على التوحيد، ودلالة على التفريد لما فسره المصنف - رضي الله عنه - بقوله: الفقر أن لا تشهد عينا سواه. وقد يتحقق العارف بفقره إلى الله ويبالغ في التحقيق إلى أن يصل إلى غاية يلزمه أن يقوم بوجود الحق لافتقاره في الوجود، لأن العبد في أصله لا شيء. فلهذا لما يضع العارف معيار التحقيق، ويبالغ في التدقيق ينشأ له من ذلك أن العبد عدم

محض، وأن الحق فرد لا وجود يضاهيه، ولا ضد فيلزمه الرجوع إلى الحقيقة وكف البصر عن الخليقة، وإذا لزمه الرجوع إلى الوجود والتمييز بين عابد ومعبود، فلا يلزمه أن يثبت وجوداً زائداً على الوجود. ولهذا يقال: الحق منستبد والوجود مستمد والمادة من عين الوجود، ولو انقطعت المادة لانهدم الوجود. فتحصل من هذا وجود العبد وما اتصف به ليس له فيه إلا مجرد النسبة. فمن تحقق بهذا المعنى فلا يجد عينا سواه، ولا وجود معه، فيلزمه أن يشاهده في كل شيء، وإذا عرفه في كل شيء فهل يفتقر إلى شيء دونه؟ كلا! فكان فقره إلى الله لازما، فهذا هو منتهى فقر القوم فيما هم عليه. **(إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله)** « النور: 32 ».

ثم قال رضي الله عنه:

أَغْنَى الأَغْنِيَاءِ مَنْ أَبْدَلَهُ الحَقُّ حَقِيقَةً مِنْ حَقَائِقِهِ

الحق عز وجل هو حقيقة الوجود لا محالة، ولولا ظهوره في المكونات لما وقع عليها البصر لأن الأشياء من ذواتها العدم المحض، والبصر لا يتعلق بالمفقود. إياك يا أخي أن يقع بصرك على الموجودات فتتوهم أنه وقع على وجودها لذاتها، وذا محال، إنما وقع على وجود موجودها الذي هو معار إليها، خلقها ثم ظهر فيها. قدر الحق تبارك وتعالى الأشياء في سابق علمه، ثم أفرغ عليها من وجوده. **(الله نور السموات والأرض)** « النور: 35 » أو تقول: **(له الكبرياء في السموات والأرض)** « الجاثية: 37 ». يا عجبا كيف تثبت الأرض والسماء مع وجود العظمة. قال في

الحكم العطائية: « كيف يظهر الوجود في العدم، أم كيف يثبت الحدوث مع من له وصف القدم ».

وحاصل الأمر أن الحق تبارك وتعالى هو حقيقة الوجود كما تقدم لعدم حقيقة تضاهي حقيقته، وقد اتفقت مقالة العارفين بأن ما سوى الله تعالى عدم محض من حيث ذاته، لا يوصف بوجود مع الله سبحانه وتعالى، إذ لو وصف به لكان ذلك شركاً واثنينية، وهو مناقض لإخلاص التوحيد قال: (**كل شيء هالك إلا وجهه**) « القصص: 88 » أي ليس هنالك إلا وجود الله (**فأينما تولوا فثم وجه الله**) « البقرة: 115 » يا من حجبت بأينما ألا ترفع بصرك إلى قوله: (**ثم وجه الله**) ما على هذا البيان من مزيد. (**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**) « فصلت: 53 » الحق أحق أن يتبع، فاتبعه حيث وجدته لعله يبدو لك ويظهر لك حق من هذه الحقيقة، فتكون حينئذ أغنى الأغنياء، لقول المصنف: أغنى الأغنياء إلى آخره، أي من كشف له عن حقيقة ما تقدم، وإلا فالحق تبارك وتعالى متبرع بهذه الحقيقة على كل أفراد العالم. والإنسان من جنسه بل هو سلطان العالم وخليفة الحق في خلقه.

قال مولانا عبد القادر الجيلاني - رضي الله عنه - في غوثيته: قال الحق تبارك وتعالى: (يا غوث الأعظم، ما ظهرت في شيء مثل ظهوري في الإنسان، ولو عرف الإنسان منزلته عندي لقال في كل نفس (**لمن الملك اليوم**) « غافر: 16 »). لأن الحق تبارك وتعالى وإن كان هو ظاهرا في الأشياء بتجلياته وعموم صفاته على اختلافها، فقد ظهر في الإنسان ظهوراً لا خفاء فيه أي بالربوبية،

أو تقول بالذات المستحقة للألوهية. قال ﷺ: (**خلق الله آدم على صورة الرحمٰن**) خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وظهر فيه بنفسه، وأمر الملائكة بالسجود إليه، وخلفه في خلقه، وجعله في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته، وله حظ من الجبروت من حيث سره، فقد اجتمع فيه الوجود بأسره، فكانت نسبته بين ملكه وملكوته وهي المسماة بالإنسان، والنسبة التي بين الملكوت والجبروت هي المسماة بخليفة الرحمٰن. فكان من حيث ظاهره نقطة من طين، ومن حيث باطنه خليفة رب العالمين.

فحقيقة الإنسان أعظم حقائق الوجود، إلا أنها خافية لا تدركها الأبصار، ولا تحيط بها الأفكار. فمن أبدله الحق حقيقة من هذه الحقيقة وكشف له عليها، فذلك قربه منه المخبر عنه في قوله عز من قائل: (**لا زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به...**) إلى آخر الحديث.

فكفى بهذه المحبة حتى أبدله حقيقة من حقه، فكيف لا يكون أغنى الأغنياء. ولا تقل يا أخي كيف تكون صيرورة الحق سمعاً وبصراً لهذا العبد، فالإيمان بهذا الحديث واجب، والتعبير عنه قبل الوصول إليه حرام:

لا زلت أقرب منه حتى صار لي ☆ سمعا وبصرا حيث كنت وساعدي
فإذا رأيت فلا أرى إلا به ☆ وإذا بطشت فلا يزال مساعدي
إن شئت شاء وإن أمرت فأمره ☆ ما شاء يصنع حاسدي ومعاندي

وحاصل الأمر إن الغنى هو الغنى بالله، ومن لم يستغن به وبمعرفته فهو شقي، لقوله ﷺ: (**من لم تغنه معرفة الله فذلك هو الشقي**). وكيف لا يستغنى بمعرفته، ويكتفي بمشاهدته،

ويتلذذ بمناجاته! وهل بقي على هذا الغنى من مزيد حيث صار الكل طوع يديه، والناس محتاجون إليه، وهو لا يحتاج إلى شيء، لما منحه الله تبارك وتعالى وأبدله حقيقة من حقه، فكيف لا يتيه بحقيقته ويستغنى بحظه من الله. (**فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون**) « يونس: 58 ».

صرت غنيـــا بـــلا درهم ☆ أتيـه على النـاس تيـه الملوك
ومـــن ذا الـــذي نـــال مكانتي ☆ في الخلق من مالك أو من مملوك

وقال غيره:

فقل لملوك الأرض تجهد جهدها ☆ فهذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى

وقال ابن الفارض - قدس الله روحه -:

فيا سكرة منها ولو عمر ساعة ☆ ترى الدهر عبدا طائعا ولك الحكم

وقال الأمير عبد القادر - قدس الله روحه -:

فقل لملوك الأرض أنتم وشأنكم ☆ فقسمتكم ضيزى وقسمتنا كثر
خذ الدنيا والأخرى أبغيهما معا ☆ وهات لنا كأسا فهذا لنا وفر

ثم قال رضي الله عنه:

أَفْقَرُ الْفُقَرَاءِ مَنْ سُتِرَ الْحَقُّ عَنْهُ

لا فقر يضاهي فقر من ستر الحق عنه مع شدة ظهوره، وعظم نوره. (**يهدي الله لنوره من يشاء**) « النور: 33 » (**ومن يضلل الله فماله من هاد**) « الرعد: 33 » فيا حسرته ويا بعده عن الحق مع قربه

منه، خاب سعيه، وضاع عمره في البطالة ولم ينزعج مما هو عليه. روي أن أهل الجنة في الجنة يعوون كما يعوي أهل النار في النار، وذلك إذا ستر الحق عنهم. يا من فنيت عمرك في الطريق ولم تحصل على شيء من غوامض التحقيق، ألا تنزعج مما أنت عليه، فمثلك كفاقد الماء وهو على شاطيء النهر. فمن لم يحصل على شيء من علم القوم فهو مسكين ذو مترية، ولو حاز من المال ما حازته الفراعنة:

مسكين ما ذاق طعم العشق مذ بدا ☆ فذاك من جملة الأنعام سارح

مسكين الجاهل المغتر يحسب أنه على شيء مفتخراً بما لا بقاء له. فالمفتخر بغير الحق مغرور:

فلا غبن في الدنيا ولا من رزيّة ☆ سوى رجل عن نيلها حظه وزر
ولا حشر في الدنيا ولا هو خاسر ☆ سوى واله والكف من كأسها صفر

الجاهل الغافل عن الحق لا يرى أكثر مما هو عليه، فهمته لا تتجاوز سقف بيته. فكان حظه من ربه كحظ المعرفة من قلبه. (الحق ينزل العبد حيث أنزله العبد من نفسه).

الفقر فقر الفؤاد الخالي من اللقا ☆ والغني بغير الحق في غاية الفقر

الفصل الحادي عشر

في الزهد والقناعة

ثم قال رضي الله عنه:

الزُّهْدُ عَافِيَةٌ

الناس في طلب العافية مصطلحون، ولن تتمحض هذه المسألة في الغالب، لأنها موقوفة على الزهد، والبلية مقرونة بعدمه؛ الزهد عافية في الظاهر والباطن. ولا تحسبن العافية تنافي مواقع القدر، كلاَّ، وإنما هي كناية عن تخفيف أثقال البلايا. ولو كانت العافية تنافي ما سبق به القدر، لما وقع بأسلافنا ما وقع. وقد سألها سيدنا عمر، ومات مطعونا، وسألها سيدنا عثمان، ومات مذبوحا. وسألها سيدنا علي، ومات مقتولا. مع أنهم مجابوا الدعوة. نعم، قد أجيبت دعوتهم فقواهم الله على حمل ما نزل بهم حتى لا يؤثر ذلك في بواطنهم. وقد بلغك كيف كان ثباتهم وتلقيهم لسهام القدر بأنواع القبول، والمعين لهم على ذلك زهدهم في الدنيا، لما قيل: «من زهد في الدنيا، هانت عليه المصائب».

وما عظمت البلية إلى على من لم يكن له أدنى زهد في الدنيا. وحاصل الأمر إن تخلي القلب من حب الدنيا هو العافية نفسها. وإن كان مُعَافًى من حب الدنيا، فالغالب لا تؤثر فيه البلية، وقد شاهدنا من خرج من الدنيا بقلبه كيف يتلذذ بالبلية ويذكرها أنها هي عين العافية. ومن لم يصل إلى ما ذكرنا يتألم من أدنى شيء أصابه. وفي هذا المعنى قال الشيخ عبد القادر رضي الله عنه: «العارف بالله

يحمل الوجود من عرشه إلى فرشه على شفر من أشفار عينه، والمتباعد عن الله، إذا تعلقت بجناحه بعوضة ضج منها». وكان يقول في مجالسه: يا غلام أنت تدعى معرفة الله، وإذا قرصك برغوث قامت قيامتك. وكل ذلك من محبة الدنيا، أعاذنا الله من شرها.

أيها المرء إن دنياك بحر ☆ موجه طافح فلا تأمننها
وسبيل النجاة فيها منير ☆ وهو أخذ الكفاف والقوت منها

ثم قال رضي الله عنه:

الإيَاسُ رَاحَةٌ، وَالقَنَاعَةُ غِنًى

الإياس والقناعة من نعم الحق عز وجل على عباده المخلصين، فمن حصل عليهما كان في راحة والناس في تعب. ليس الغنيُّ من جمع المال، إنما هو من أفقر الفقراء، لو كشفت على اللهيب الموقود في باطنه، وتشوفه، وطمعه لأشفقت من حاله، فتعرف حينئذ أن الغنيَّ من كانت القناعة من نعته، والإياس من وصفه، قد عاش والله وتلذذ وتنعم بنعمة قليلة الوجود، والناس في غفلة، حتى لو سألته وقلت له: ما تحتاج؟ لأجابك بعدم الاحتياج إلى شيء. بل لو سأله مولاه لأجاب بما أجابك. وأي غنى أعظم من هذا:

إن الغنى غنى النفس عما تشتهي ☆ وفقرها تشوفها إلى الفضول

ولبعضهم رحمة الله عليه:

إن قيل لي يا عاري أسألن ما تريد ☆ قلت الرضى يا باري عسى نموت شهيد

سألت شيخنا سيدي محمد البوزيدي - رحمة الله عليه - عن

البركة ما هي؟ فقال لي: هي القناعة، لأنها كنز لا يفنى. فمن كان له نصيب منها، كان لا يحتاج إلى أحد. وكان له - رضي الله عنه - حظ وافر منها، ومن العجب أنه لم يذكر لنا احتياجاً مدة اجتماعنا معه، وكنا إذا ناولناه بعض الأطعمة أو الأشربة حسب الزمان، يقول: كنا عند سيدي «محمد بن قدور» - رضي الله عنه - في بعض الأيام نأكل الحشيش ونشرب الماء من عين زورة ونفترش الحلفاء، وكان الفقراء يسمونها بالسندس الأخضر، ونسكن الغيران، وكان إذا بعثنا الشيخ - رحمة الله عليه - لنأتي بنبات الأرض للمعاش، أنا ومن معي من الفقراء، فيأخذ الفقراء في تخيير النبات الذي يناسب الطبخ، وكنت أنا آخذ ما يحاذيني بدون أن أتشوف لما وراء ذلك، فأنكر علي الفقراء وقالوا: يوجد في العشب ما لا يصلح للأكل. فقال الشيخ: دعوا البوزيدي هو ناقة الله يأكل في أرض الله. وكنا في راحة وقناعة لم توجد لذتها. فانظر يا أخي وقس راحة هؤلاء مع راحة المتعوبين. فالراحة كل الراحة في القناعة:

هي القناعة فالزمها تعش ملكا ☆ لو لم يكن منك إلا راحة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها ☆ هل راح منها بغير القطن والكفن

وفي الحديث: (**ما من يوم طلعت فيه شمس، إلا وملكان يناديان يسمعهما خلق الله إلا الثقلين: أيها الناس هلموا إلى ربكم، إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى**) وقال بعضهم: «صاحب القناعة ومالك الدنيا غير متساويين، بل صاحب القناعة أقل حزناً، وأطيب نفساً، وأقر عيناً».

قيل: إن بعض الملوك كان يترقب من قصره وإذا بفقير أسفل القصر يلتقط من المزابل ما يقتات به، فوجد قطعة من خبز فأخذها

وأتى بها إلى عين من الماء كانت في جانب القصر، فغسلها ثم أكل منها وشرب من ذلك الماء، وحمد الله عز وجل وأثنى عليه بالشكر، ثم توضأ وصلى ما وجب عليه، ثم افترش ثوبه في ظل القصر ونام ما شاء الله، والملك يتفكر في حاله، فلما أفاق من نومه، أمر الملك بإحضاره، فلما أحضروه سأله: ألك احتياج إلى شيء حتى أكفيك مؤنته؟ فأجابه: إني لا أحتاج، فقال له الملك: وكيف ذلك؟. قال: كنت جائعا، فأكلت وشربت ونمت وأنا الآن مستريح. فقال الملك: والله ما توصلت أنا لما حصلت عليه أنت، فإني ما استرحت ولا قنعت منذ خلقت، ثم خلع الملك وانفرد لله عز وجل. ولبعضهم رضي الله عنه:

قناعة المرء بما عنده ☆ مملكة ما مثلها مملكة
فارضوا بما قد جاء عفوا ولا ☆ تلقوا بأيديكم إلى التهلكة

نتحصل من هذا أن الغنى هو عدم التشوف، ورفع الهمة عن الكل، والفقر هو بعكسه. وللإمام النووي في هذا المعنى:

وجدت القناعة أصل الغنى ☆ فصرت بأذيالها متمسك
فلا ذا يراني على بابه ☆ ولا ذا يراني له منهمك
وعشت غنيا بلا درهم ☆ أمر على الناس شبه الملك

قال بعض العارفين: خرجنا من المدينة حجاجاً، فلما كنا بالزاوية نزلنا فوقف بنا رجل عليه ثياب رثة، وله هيبة وصورة حسنة ومروءة، فقال: من يبغي خداماً، من يبغي سقاة؟ فقلت: دونك هذه القربة، فأخذها ثم وضعها وهو كالمسرور ضاحكاً، ثم قال: ألكم غيرها؟ قلنا لا، فأطعمناه قرصاً بارداً، فأخذه وحمد الله سبحانه

وشكره، ثم اعتزل وقعد يأكل أكل الجائع، فأدركتني عليه شفقة وقمت إليه بطعام طيب كان معنا، وأكثرت له منه، فقلت له: قد علمت أنه لا يقع القرص منك موقع الاستحسان، فدونك هذا الطعام، فنظر في وجهي وتبسم وقال: يا عبد الله، إنما هي فورة جوع، فلا أبالي بأي شيء أردُّهَا عني. فرجعت عنه. فقال لي رجل إلى جانبي: أتعرفه؟ قلت لا، قال: إنه رجل من بني هاشم من نسل العباس بن عبد المطلب، فذهبت إليه وطلبت منه أن يقدم عندي لرحلي، فجازاني خيراً وقال لي: لو أردت هذا لكان لي ميعاد، ثم آنس إلي وجعل يحدثني وقال لي: أنا رجل من ولد العباس كنت أسكن البصرة، وكنت ذا كبرٍ شديد وتجبر، وإني أمرت خداما لي أن يحشوا لي فرشا من حرير ووسادة بوردٍ كثير، فبينما أنا نائم إذا بقماع ورد قد غفلت عنه الخادمة، فقمت إليها وأوجعتها ضربا، ثم عدت إلى مضجعي ونمت، فأتاني آت في منامي في صورة فظيعة فهزني وقال لي: أفق من غشيتك وأبصر من حيرتك، ثم أنشأ يقول:

يا خـذُ أنك إن توسـد لينـا ☆ وسدت بعد الموت صم الجندل
فمهد لنفسك صالحـاً تسعـد بـه ☆ فَلتَنْـدَمَنَّ غـداً إذا لم تفعـل

قال: فانتبهت فزعاً فخرجت من ساعتي إلى ربي هاربا. فهذا خبرى. فهذا حال من أثرت فيه الموعظة، وإلا قد يرى الغني الجاهل المثبور من يزهده في الدنيا بأجمعها ولا يبالي (**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**) « المطففين : 14 » فلو تأمل الإنسان فيما وراء ذلك لأخذ من الدنيا ما يكفيه. وقد انقضت الأيام. ولله در القائل:

وزهرة الدنيـا وإن ينعـت ☆ فإنهـا تسقى بمـاء الـزوال

ثم قال رضي الله عنه:

«الطَّمَعُ فِي الخَلْقِ شَكٌّ فِي الخَالِقِ»

لا يطمع في الخلق إلا محجوب، ولا يشك في الخالق إلا مسلوب. سئل النبي ﷺ عن القناعة فقال: (**هي الإياس مما في أيدي الناس، وإياكم والطمع، فإنه الفقر الحاضر**) وقال أيضا: (**عز من قنع وذل من طمع**) وقال بعضهم: «لو سئل الطمع من أبوك؟ لقال الشك في الخالق».

وللإمام الشافعي رضي الله عنه:

أمت مطامعي فأرحت نفسي ☆ فإن النفس ما طمعت تهون
وأحييت القنوع وكان ميتا ☆ ففي إحيائه عرضي مصون
إذا طمع يحل بقلب عبد ☆ علته مهانة وعلاه هون

وقال غيره:

لا تخضعن لمخلوق على طمع ☆ فإن ذلك وهن منك في الدين
واسترزق الله مما في خزائنه ☆ فإن ذلك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما ☆ استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقيل إن الإمام علياً - كرم الله وجهه - دخل إلى مسجد البصرة فوجد الحسن البصري في مجلسه فقال له: يا فتى إن جاوبتني على مسألتين أقررتك على ما أنت عليه، وإلا أقمتك كما أقمت أصحابك. فقال: على ما في علمي يا أمير المؤمنين. فقال له: ما صلاح الدين؟ قال: الورع. فقال له: وما فساد الدين؟ قال: الطمع. فشكره على ذلك وأوصى بتعظيمه.

الطمع هو الفقر اللازم والإحتياج الكلي المقرون بالهوان.

والخلق ليس لهم ما يكفيهم، فكيف أنت تحتاج إليهم وتطمع فيما في أيديهم. فلو فتشتهم وسألتهم عما احتجب عنك من سرائرهم لو جدتهم أحوج منك. ما أحوجك للخلق إلا عدم ثقتك بالخالق. فقسمتك من رزقك لا تفوتك، وقد قام به غيرك، فلا تتهمه في قسمته لك، فإنه أولى بك من نفسك، فإذا كنت من عياله، كيف تحتاج إلى غيره. قلت:

أيا فقير الحال تطمع في مثلك ☆ فصرت لجهلك فقيراً إلى الفقر

فالحق سبحانه وتعالى ينفق على كل أحد حسب ما يستحقه إليه من حيث الحكمة. فرغ ربك من أربع: من خلق، وخلق، ورزق، وأجل. لا يكون تشوفك اللاحق سببا في عطائه السابق، (**لا تبديل لخلق الله**). أسكن تحت رضاه، وخذ ما أتاك، وكن من الشاكرين، وإن لم يأتك فكن من الصابرين، فإن منع الحق أحسن من عطاء الخلق. الخلق ليس لهم من الرزق إلا مجرد النسبة، أتطلبهم أن يعطوك ما ليس لهم. فكن يا أخي واثقا بالله، وارض بما قدره وارتضاه، وانظر لما دونك تسترح، وأشفق من نفسك ساعة وقد أتى الرحيل، فتأتي الراحة الأبدية والمنة الدائمة تدخل (**جنة عالية لا تسمع فيها لاغية، فيها عين جارية، فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة**) « الغاشية: 10 » ذلك وعد الله، إن الله لا يخلف الميعاد. وقد وعد الله بذلك من صبر من الفقراء الصالحين أن يدخلوها قبل الأغنياء الشاكرين. قال ﷺ: (**ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب: رجل أراد أن يغسل ثوبه فلم يجد له خلفة يلبسها، ورجل لم ينصب على مستوقده قدرين، ورجل طلب شرابه فلم يقل له أيهما تريد**).

المؤمن لا يخلو في الدنيا من تعب لأنها دار عذاب وعسر ونصب. وكيف يتخلص من ذلك وقد قال ﷺ: (**الدنيا سجن المؤمن**). الإيمان مقرون بالمحن. قال في الحكم العطائية « لا تستغرب وقوع الأكدار ما دمت في هذه الدار، فإنها ما برزت إلا موجب وصفها ومستحق نعتها ».

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ اشْتَغَلَ بالدُّنْيَا ابْتُلِيَ بِالذُّلِّ فِيهَا

أي من اشتغل بالدنيا اشتغالاً كلياً حتى أدبر عن الأخره ابتلي بالذل فيها، لأنه صار مملوكاً لها، مقهوراً في حياطتها بل أسيرها. وقد قيل: إن عبد الدنيا أسير. وكفى بالأسير ذلاً، فهو تعيس السيرة، مطموس البصيرة. قال ﷺ: (**تعس عبد الدنيا، تعس عبد الدرهم**) حيث كانت همته لا تخرج عن الدرهم، وكلما انحط للدينار إلا وازداد في الانحطاط حتى تجد أن من ابتلي بمحبة الدنيا وجمع الأعراض الزائلة، لو قيل له: إن في جمع القاذورات فائدة غزيرة لصار يجمع في ذلك بدون أن يبالي بشيء، فهو يقصد الدرهم حيث وجده بقطع النظر عن كل عارض خير أو غير.

فالدنيا في نظر العارفين الذين تجافوا عن زينتها أقذر من القاذورات وأخبث من الخبائث. وكفى بما وصفها به ﷺ: (**الدنيا جيفة وطلابها كلاب**) ومن حيث أنها جيفة لا يحل لمن اطلع على عورتها أن يَدّخر أكثر مما يحتاج إليه في ذلك الوقت، لأن الميتة تؤكل عند الاضطرار (**فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه**) « البقرة: 173 »

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني - رضي الله عنه - في مقالته الخامسة من كتابه « فتوح الغيب » : « إذا رأيت الدنيا في يد أربابها بزينتها وأباطيلها، وخدعها، ومصائدها، وسمومها القتالة مع لينٍ من ظاهرها، وضرورة باطنها، وسرعة هلاكها، وقتلها لمن مسها واغتر بها وغفل عن وبالها وغرورها بأهلها، ونقض عهدها، فكن كمن رأى إنسانا على الغائط بالبراز بادية سوءته وفاتحة رائحته، فإنك تغض بصرك عن سوءته، وتسد أنفك من رائحته ونتنه ». فهكذا كن في الدنيا إذا رأيتها، غض بصرك عن زينتها وسد أنفك عما يفوح من روائح شهواتها ولذاتها تنج منها ومن آفاتها، ويصل إليك قسمك منها وأنت مهنى. قال الله تعالى لنبيه ﷺ: (**ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه، ورزق ربك خير وأبقى**) « طه: 131 » اهـ.

وكلام القوم في ذم الدنيا لا ينافي بعض الاشتغال، بل ينافي الاشتغال الكلي، وهو ميلان القلب وتعلقه بحبها والرغبة في جمعها. وأما السبب المطلوب لا يناقض وجود التوكل، بل مما يزيد عزّاً لصاحبه: (**ولا تنس نصيبك من الدنيا**) « القصص: 77 ». قلت:

تسبب ولا تحسب إنك متسبب ☆ ففي السبب عز إذا رأيت المسبب
فلا يشغلك عنه سبب وإن جرى ☆ فاتركه لغيرك ولله فاطلب

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ تَزَيَّنَ بِزَائِلٍ فَهُوَ مَغْرُورٌ

كل ما سوى الله زائل لا محالة، خصوصا الدنيا وزخرفها لقوله ﷺ: **(أصدق كلمة قالها الشاعر: ألا كل شيء ما خلا الله باطل)**.ومن تزين بالباطل فهو مغرور، لأنه زائل **(فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)** « الرعد: 17 ». وقد قيل: من أراد أن يتعزز بعز لا يفنى، فلا يعتز بعز يفنى. ومثل المتعزز بالزائل كمن رآى في منامه أنه قابض على دراهم وأفاق في أثر ذلك المنام فيصير ينظر في يديه فلا يجد شيئا، لأن الحالة التي كان عليها ليس لها وجود في الخارج، إنما هي اعتبار للمعتبرين، فكذلك المتزين بالدنيا من مال، وجاه، وصولة، ورئاسة وما أشبه ذلك، إذا خرج إلى الآخرة يجد يده فارغة **(إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه)** « الرعد: 14 » فيرى الحالة التي كان عليها مجرد منام، لقوله ﷺ: **(الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا)**.

أهل اليقظة، العارفون بالله لم يتزينوا بالزائل، إنما زينتهم العلم بالله والخشية منه. وقد قيل في مدحهم:

تاهوا عن الكون من وجد ومن طرب ☆ فما استقرّ بهم ربع ولا طلل
لم تلههم زينة الدنيا وزخرفها ☆ ولا جناها ولا حلي ولا حلل

فعلوا ذلك اقتداء بأسلافهم الصالحين والخلفاء الراشدين، حيث جفوا الدنيا وزخرفها، إنما أخذوا منها ما مستهم الحاجة إليه، لم يشتغلوا بها عن آخرتهم.

ثم قال رضي الله عنه:

اِطْرَحِ الدُّنْيَا عَلَى مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا وَاقْبِلْ عَلَى مَـوْلاَكَ

الناس في حب الدنيا سكارى وفي طلبها حيارى (**وترى الناس سكارى وما هم بسكارى**) «الحج: 2» قد أخذت قلوبهم وأفئدتهم، بل سمعهم وأبصارهم. (**وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون**) «الأعراف: 198» (**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يعقلون**) «البقرة: 17» ما سواها ولا يلتفتون لما عداها، فارين من الله فرار الحمار من الأسد، (**كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة**) «المدثر: 50» إذا خاطبتهم لا يسمعون، وإذا نصحتهم لا يستنصحون، يقولون لك سمعنا وهم لا يسمعون. فاطرح أيها المريد الصديق الدنيا على من اشتغل بها، واقبل على مولاك، فإن المجال رحب واسع، والميدان شاسع، ولا معارض لك إن طرحت الدنيا ولا مانع، فانفرد بهذه النصيحة واقبل على مولاك، فإن المقبلين على الله أقل من القليل، وقليل ما هم، فتكون عند الله عزيزا لقلة أمثالك في الإقبال على الله، حتى إذا وصلت وجاوزت ما جاوزت، وكنت مقبولا عند الله عز وجل، وكيف لا وقد طرحت الدنيا على أهلها وأقبلت على خالقها، فلا جرم أنه يجذبك إليه ويقتنيك لنفسه، وذلك من نعته، فقد قال في بعض كلامه: (**من اشتاق إلي اشتقت إليه، ومن تقرب إلي تقربت إليه، وإني أولى بالعبد من نفسه**).

ثم قال رضي الله عنه:

تَـرْكُ الدُّنْيَـا لِلدُّنْيَـا شَـرٌّ مِنْ أَخْذِهَـا

أي من ترك الدنيا من أجل الدنيا ليتوصل بتركه لها أكثر مما تركه منها، فكان تركه شرًّا من أخذه لها، أي أشد عقوبة عليه، لأنه جعل الزهد وسيلة في الرغبة، صير الطاعة معصية حيث جعل تركه لها سلما يتوصل به إلى غاية لا يصلها بغيره كانتشار الصيت، وتربية الجاه، وما أكنته طويته، فليته أخذ ولم يترك. ولهذا قال بعضهم: « احذر أيها المريد آفات الرد أكثر من أن تحذر آفات الأخذ ». ولا تترك يا أخي شيئاً من دنياك حتى تعلم من نفسك أنها تريد به وجه الله وثواب الاخرة، وإلّا تكن معاقبا على الترك أكثر من عقوبتك على الأخذ. فمهما فهمت من نفسك أنها تريد أن تترك شيئا لتنال ما أضعف منه، فأمسك ولا تتسبب في ذلك وفر منه فراراً كلياً، وارجع لله فيما سولت لك نفسك، واتبعها باللوم على قلة حيائها من الله. قال بعض العارفين: « لا ينبغي للمخلص أن يترك شيئاً يريد به ثواب الآخرة » لأن الله قال: **(من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)** « الأنعام: 160 ».

العارف يستحيي من الله أن يترك شيئا لكي ينال ما أضعف منه بل يريد أن يترك شيئاً لله لا يريد به جزاء ولا شكوراً. فانظر - بارك الله فيك - أحوال المخلصين، فإنهم لا يتركون الدنيا لأجل الآخرة، فكيف حال من يترك الدنيا للدنيا، فهل هذا إلا تاجر إن لم يكن فاجراً، فمثله كصاحب الربا، فكل يحتال بسيرته. إلا أن ترك الدنيا للدنيا أشد عقوبة من غيره لتستره بالدين، بخلاف صاحب الربا فهو متلبس بقلة الدين، لا يخفى حاله على الخلق، فكل يعلم حقيقته. إياك يا أخي وأكل الدنيا بالدين. فلا تستعمل عملا حتى تستحضر فيه نيتك وتخلص فيه كل الإخلاص لرب العالمين.

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ كَانَ الأَخْذُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الإِخْرَاجِ فَلَيْسَ بِفَقِيرٍ

لاَ يَكُون الفقير فقيراً والمراد به الصوفي المنقطع إلى الله، إلا إذا كان عنده الأخذ والعطاء على حد سواء، وإلا فهو تاجر كما تقدم، لأن الأخذ فائدته لينفق به على نفسه ومن يعوله ومن أحوج منه، وبهذا رخص له في الأخذ. ومن كان الأخذ أحب إليه من العطاء فهو مُتَّهَمٌ لجمع الدنيا ممن يأكل الدنيا بالدين، فهو أشر المنتسبين إلى الله. إياك أيها الفقير أن تركن للأخذ دون العطاء، فإن كنت تأخذ من الخلق، فلك أن تمد للخلق ولا تمنعهم حقهم. وإن كنت تزعم أنك تأخذ من الحق، والكلام يعود على المتجرد عن الأسباب، لا على أهل الحرف والتجارة، فذلك حكم أخر، فأخذهم موقوف على وجود الأسباب، لا يدخل فيما ذكرناه.

وانظر بارك الله فيك، وفي نسلك فيمن مضى من رجال الطريق وآثارهم، وبذلهم وإعطائهم وزهدهم في ملكهم فضلا مما يأخذونه من الناس، فهم ينفقونه على الناس. فانفق بارك الله فيك، ولا تشتغل بما تتركه لأبنائك، فذلك موكول لله عز وجل.

دخل بعض الفقراء على زوجته يستأذنها في الذهاب لبيت الله المعظم، وقال لها: نترك لك زاد سنة وأذني لي في الذهاب، فقالت: لا نرضى حتى تترك لي ما يكفيني طول حياتي، فقال لها: ذلك موكول لله عز وجل. فقالت: إن كنت تعلم ذلك، فلماذا لا تتوكل عليه فيما تركته في هذه السنة؟.

فانظر رحمك الله ما أزهد هذه المرأة مع ضعفها من كل الوجوه. فكيف بك أيها الرجل الذي وصفك الله عز وجل بالقوة حيث قال: **(الرجال قوّامون على النساء)** « النساء : 34 ».

خصوصا مع نسبتك إلى الله، فلا يسوغ لك الرغبة في الدنيا، وليس ذلك من شيمتك، وغير مطابق لمقامك. فإن كنت تأخذ ما تتركه لأبنائك فيحرم عليك الأخذ، لأنك تأخذ من الناس ما يتركونه لأبنائهم، وتتركه أنت لأبنائك. فهل هذه قسمة بالسوية؟ كَلاَّ! إنما هي رغبة بالكلية، وليس ذلك من أفعال العارفين، إنما هو من أفعال المتلصصين. اتق الله في سيرتك لئلا تكون حجة عليك، ويطرأ عليك قوله عز وجل: **(أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب)** « البقرة : 44 » **(كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون)** « الصف : 3 ».

اترك الدنيا أخي لأهلها، وإن أخذتها خذها لتستعين بها على الله، ومن يعولك وواس الفقراء والمساكين، فإنهم عيال الحق، وأقرب الخلق إلى الله أحسنهم لعياله.

ارحم بني جميع الخلق كلهم ☆ وانظر إليهم بعين الحلم والشفقه
وقر كبيرهم وارحم صغيرهم ☆ وراع في كل خلق حق من خلقه

وواس نفسك وأهلك، فإنك من جملتهم فيما تحتاجونه في الوقت القريب. ولا تمدن عينيك من بعد موتك، فذلك موكول للحق عز وجل، ومهما اشتغلت به وكلت إليه أمورك وانسلخت مما كنت عليه تفز بكل خير.

قد يوجد في بعض العارفين من كان العطاء أحب إليه من الأخذ، ولولا أن أخذهم كان من الله لما أخذوا من الخلق.

ثم قال رضي الله عنه:

الزُّهْدُ فَضِيلَةٌ، وَفَرِيضَةٌ، وَقُرْبَةٌ. فَفَضِيلَةٌ فِي المُتَشَابِهِ، وَفَرِيضَةٌ فِي الحَرَامِ، وَقُرْبَةٌ فِي الحَلَالِ

إنَّ الزهد إما أن يكون فرضا، وإما أن يكون فضيلة، وإما أن يكون قربة. فتنقسم مراتب الزهد إلى مراتب ثلاثة، فالمرتبة الأولى هي: الزهد في الحرام، وهي فريضة في الجملة، أي فريضة على كل مسلم أن يزهد في الحرام، ويقطع النظر عليه كأنه لم يكن موجوداً، وهذا هو زهد العامة. وزهد الخاصة في المتشابه، وهو فضيلة وذلك أن المريد يطلب في حقه أن يترك كل ما فيه شبهة لله عز وجل، لا يتشوق إليه كأنه لم يكن، معدوماً من أصله. وزهد خاصة الخاصة الذي هو قربة يكون في الحلال، فصاحب هذا المقام خارج عن الكل بقلبه بل بروحه وعقله، عازف عن الدنيا وشهواتها، بل عن الآخرة ولذاتها. فأهل هذا المقام انقطعوا عن الكل، فارتضاهم الحق لنفسه واصطفاهم من بين خلقه، واختصهم بقربه واصطنعهم لحضرته، فلم يأخذوا من الدنيا ولم تأخذ منهم، ولا تشوقوا للآخرة وكم طلبتهم، يشتاقُ لهم كل شيء، ولا يشتاقون لشيء، يحبهم كل شيء، ولا يحبون شيئاً، استعبدوا كل شيء، ولم يستعبدهم شيء. فهؤلاء عباد الله حقاً، وأحبابه صدقاً، خرجوا من الدنيا كأنهم لم يدخلوها، ومكثوا في الحضرة الإلهية كأنهم لم يفارقوها.

الذكر مطعمهم والشكر مشربهم ☆ والوجد مركبهم من أجل ذا سعدوا
تراهم الدهر لا يمضون من بلد ☆ إلا ويبكي عليهم ذلك البلد

(رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) « النور : 37 ».

لم تلهيهم زينة الدنيا وزخرفها ☆ ولا جناها ولا حلي ولا حلل
تاهوا على الكون من وجد ومن طرب ☆ فما استقل بهم ربع ولا طلل

ثم قال رضي الله عنه:

الزُّهْدُ العُزُوفُ عَنِ الدُّنْيَا، وَالإِعْرَاضُ عَنْهَا لِحَقَارَتِهَا، وَتَرْكُهَا لِاسْتِصْغَارِهَا وَهَوَانِهَا.

الزهد والعزوف عن الدنيا ينشأ بسبب نظر العارف لزوالها وانكساف نورها. فإذا تمكن ذلك من قلبه، فلا محالة يعرض عنها حيث يلاحظها ببصر الإيمان والإيقان، فيظهر له ما هنالك من خستها وبشاعتها، فيكون فيها كالغريب وعابر سبيل، فيتجافى عن لذتها، ويتسلى عن نعيمها حيث يرى وجودها زائلاً، وجمالها ذابلاً، وعقابها بعد ذلك لا محالة حاصلاً، فالعزوف عنها سمة العارفين، والوقوف معها وصف الجاهلين المغترين. ولبعضهم في هذا المعنى:

فحلاوة الدنيا لجاهلها ☆ ومرارة الدنيا لمن عقلا

وقيل أيضا:

إذا أدبرت كانت على القلب حسرة ☆ وإن أقبلت كانت كثيرا همومها

لا تغتر يا أخي لزخرفها فإنه بطال، وبقاءها محال، وأنت ترى تقلباتها في كل وقت وحال، طعامها قتال، وأبناؤها جهال. ومن النصائح لبعضهم:

كلفت بها دنيا كثيراً غرورها ☆ تقابلنا في نصحها بالخديعة
إذا أقبلت ولت وإن هي أحسنت ☆ أساءت وإن صافت أتت بالكدورة
ولو نلت منها مال قارون لم تنل ☆ سوى لقمة في فيك منها وخرقة
فدكها وأهلها بقسم وخذ كذا ☆ بنفسك عنها فهي كل الغنيمة
ولا تغتبط منها بفرحة ساعة ☆ تعود بأحزان عليك طويلة
فعيشك فيها ألف عام وينقضي ☆ كعيشك فيها بعض يوم وليلة
عليك بما تجزى عليه من التقى ☆ فإنك في هو عظيم وغفلة

فإن استقر في ذهنك وصفها، وتمكن في قلبك نعتها، أي شيء تعمل بصحبتها، وماذا تقضي في محبتها، إنما تأخذك عبداً مملوكاً حتى إذا استفرغت فيها كل الجهد قابلتك بالأضداد. كلما أضحكتك أبكتك، وكلما حبتك جفتك، فستراها زائلة عنك، أو تزول أنت عنها. تقبض منها كالقابض على الماء. لا ميثاق لها ولا عهد، ولا محبة لها ولا ود، كم أخذت رجالاً من مناصبهم العالية ووعدتهم بتمام المنية، ولما جالت بهم في ميدان الحرص والإنهماك، نكلتهم وتركتهم، لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، خسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين. كن عاقلاً واعتبر بمن سبق وبما سيلحق، وناهيك قوله عز وجل في وصفها: (**وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو**) وقوله أيضا: (**اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً، وفي الأخرة عذاب شديد**) « الحديد : 20 » فكان منتهى وصفها العذاب الشديد. العاقل لا يعقل، وأعقل الناس من خرج منها بقلبه حتى صارت مصائبها لا تؤثر فيه، وجمالها لا يعبأ به، لأنها دار لمن ليست له دار، وقرار لمن

ليس له قرار والكل يعلم منها ذلك حقيقة. (**فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**) « الحج : 46 » فمن له قلب يراها كما رآها حارثة رضي الله عنه لما سأله ﷺ: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال أصبحت مؤمنا. فقال: ما حقيقة إيمانك؟ قال عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي مدرها وذهبها، وكأني بعرش ربي قد نصب، وكأني بأهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. الخ الحديث. فتأمل بارك الله فيك كيف كان له ذلك لما تمكن نور الإيمان من قبله، فهو في الدنيا وكأنه لم يكن فيها. قال بعضهم:

تنح عن الدنيا فلا تخطبنها ☆ ولا تخطبن فتالة من تنائح
فليس يفي مرجوها بمخوفها ☆ ومكروهها إن ما تأملت راجح
لقد قال فيها الواصفون فأكثروا ☆ وعندي لها وصف لعمري صالح
سلاف قُصَارَاهَا زعاف ومركب ☆ شهي إذا استلذته فهو جامح
وشخص جميل يؤنس الناس حسنه ☆ ولكن له أسرار سوء قبائح

كان إبراهم بن أدهم – رضي الله عنه – صاحب خراسان فإذا هو ذات يوم على جواده، فنودي من قربوصه، ما لهذا خلقت عبادي، ولا بهذا أمرت أهل ودادي. فقال: أصابني سهم في مقتل فؤادي، فخربت ملكي وتغربت عن بلادي، فلما انفصل عن ملكه، وساح في البوادي، وانقطع عن الرفيق، بقي سبعة أيام لم يصل إلى بطنه لقمة من طعام، فغار الشيطان من صدقه وشدة عزمه، وأتاه على صورة شيخ قائلا له: يا إبراهيم إني لك من الناصحين، إن الحبيب الذي تركت لأجله ملكك، قد ضيعك حتى أشرفت على الموت. فقال له: لا بأس بذلك. فبينما هو كذلك إذ أقبل عليه شخص من أحسن الناس وجها، وقال: يا إبراهيم، تريد أن أعلمك الإسم الأعظم، فتسقى

به وتطعم ؟ فقال نعم. فعلمه إياه، فقال له من أنت ؟ قال أنا الخضر، أتريد أن أصحبك ؟ قال لا، قال وَلِمَ ؟ قال. لأن الصحبة لا تحصل إلا بالمشاركة، وأنا لا أريد أن أشاركك في مصحوبي، ولا أصحب غير محبوبي. فانفرد كل من ساعته.

كان إبراهيم – رضي الله عنه – لما انفصل عن أهله فارق زوجته وهي حامل، فولدت له ولداً فسموه أدهم باسم جده، فلما كبر قال لأمه: يا أماه أما كان لي أب ؟ قالت بلى والله يا بني ! كان لك أب، وأي أب ! فقال : أين ذهب ؟ فقالت يا بني ذهب في طلب ربه، فقال يا أماه، دعيني أذهب وأطلب ما طلب أبي لعلي أفوز بأربي. فقالت بالله عليك يا ولدي إن أباك قد أحرق قلبي بفراقه، فلا تحرق أنت قلبي بفراقك. فمكث رعاية لأمه حتى ماتت فبقي حزينا لا أم له ولا أباً. فخرج حافيا وعن الناس خافيا، يبيت بالمساجد المهجورة ويسأل اللقمة من الأبواب، إلى أن وصل إلى مكة شرفها الله تعالى، فبينما إبراهيم في الطواف ومعه بعض مريديه، إذ نظر الشيخ إلى الشاب وجعل يحدق بالنظر إليه، فأنكر المريد عليه وقال : يا سيدي ما هذه الغفلة في هذا المكان والوقت، تحدق بالنظر إلى صورة مستحسنة ؟ فبكى الشيخ وقال للمريد : إذهب واسأله من هو ؟ فذهب المريد إليه وسلم عليه وقال له : من أين أنت أيها الشاب ؟ فقال : من بلاد العجم من بلخ، فقال : ابن من ؟ فقال : لا أدري، إلا أن أمي قالت لي إن إسم أبيك إبراهيم بن أدهم، ثم تناثرت دموعه على خده. قال المريد : فرجعت إلى إبرهيم فوجدته قد بكى حتى غشي عليه، فجلست عند رأسه حتى أفاق فقلت له : يا شيخ، الله يأخذ حقك من هذا الشاب، فقال : هذا والله ولدي تركته لله تعالى فلا أعود فيه.

فقلت له: أيها الشيخ، سألتك بالله إلا ما قمت إليه، فقام إليه، فقال له الصبي: من أنت؟ فقال: أنا أبوك إبراهيم بن أدهم، ثم ضمه إلى صدره وقال: إلاهي هذا ولدي وقطعة من كبدي، وقد جاء في طلبي، وقد علمت موضعه من قلبي وأنا لا أتفرغ له، وأنت أعلم بمصالح عبادك. فما مضت على الشاب سبعة أيام حتى قضى نحبه، فغسله أبوه بيده وكفنه في قطعة كساء غليظ كلما غط رأسه بانت رجلاه، وكلما غطى رجليه بان رأسه، وهو يقول: قرة عيني، الله يجمع بيني وبينك يوم القيامة. اهـ

فتأمل بارك الله فيك، زهد هذا الإمام وعزوفه عن الدنيا. ومن قوله رحمة الله عليه:

نُرَقِّعُ دنيانا بتمزيق ديننا ☆ فلا ديننا يبقى ولا ما نُرَقِّعُ
فطوبى لعبد آثر الله ربه ☆ وجاد بدنياه لما يتوقع

وقال غيره في هذا المعنى:

هب الدنيا تساق إليك عفوا ☆ أليس مصير ذاك إلى الزوال
وما دنياك إلا مثل ظل ☆ أظلك ثم آذن بانتقال

ومن النصائح أيضا:

يا راقد الليل مسروراً بأوله ☆ إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
أفنى القرون التي كانت منعمة ☆ كل الجديدين إقبالا وإدبارا
كم قد أبادت صروف الدهر من ملك ☆ قد كان في الدهر نفاعاً وضرارا
يا من يعانق دنيا لا بقاء لها ☆ يمسي ويصبح في دنياه سفارا
هلا تركت من الدنيا معانقة كيما تعانق في الفردوس أبكارا

ولا شك أن المؤمن إذا علم هذا علم يقين وتمكن من قلبه غاية التمكين، تسقط رغبته في الدنيا، وتنهدم لذته، ويتشوف لما وراء ذلك من النعيم المقيم، لأن الدنيا ليست دار مقام، فلهذا كانت محلاً للأهوال في الغالب. يقول كمن قال:

وقد جاء وقت الزهد أهلا ومرحبا ☆ مكانك بين السحر مني والنحر
خلوت عن الأملاك طراً فلا أرى ☆ أميل إلى ملك ولو كان ذا خطر
لك الصبر عن حمد الورى ولك الثنا ☆ ولا خير في عز يفـــارق في حشر

ولم يبق من الزهد في زماننا هذا إلا مجرد الذكر على نعت التورية، وأما وجوده حقيقة فهو أعز من أن يوجد.

تجد كل الناس على اختلاف طبقاتهم طالبين الدنيا فضلاً عن أن يتركوها من عامة الخلق وخاصتهم، ولهذا كان الوعظ لا يسري في بعضهم، لأن الكلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي برز منه.

سئل الجنيد - رضي الله عنه -: ما بال علماء زماننا لا نتعظ بوعظهم كما كان علماء السلف؟ فقال: « علماء السلف كانوا أيقاظاً والناس نيام، يمكن انتباه النيام، وعلماء زماننا نيام والناس أموات، وهل يمكن للنائم أن يحيي الميت ». هذا في زمان الجنيد، وكيف بزماننا. قد تجد المنتسب مفتونا في حاله فضلاً عن أن يذكر غيره، ذاهلا في عبادته ومعاملته مع الحق، استولت الغفلة على القلوب.

أشفق أخي على نفسك، وقم بما وجب عليك، وأفرغ قلبك من هم ما ليس في طوقك، وأزل الكل من قلبك وأقبل على الله بسرك، فإنك في فتنة ولم تشعر، واسمع ما قال الشاعر:

تصلي بلا قلـب صـلاة بمثلهـا ☆ يصير الفتى مستوجبـا للعوقبـة

تصلي وقد أتممتها غير عالم ☆ تزيد احتياطا ركعة بعد ركعة
فويلك تدري من تناجيه معرضا ☆ وبين يدي من تنحني غير مخبت
تخاطبه إياك نعبد مقبلا ☆ على غيره فيما لغير ضرورة
ولورد من ناجاك للغير طرفه ☆ تميزت من غيظ عليه وغيرة
أما تستحيي من مالك الملك أن يرى ☆ صدودك عنه يا قليل المروءة
صلاة أقيمت بعلم الله إنها ☆ بفعلك هذا طاعة كالخطيئة
ذنوبك في الطاعات وهي كثيرة ☆ إذا عددت تكفيك عن كل سة

هكذا حال الغالب كما هو حالنا، وكيف حال المقتدي بنا. (**إنا لله وإنا إليه راجعون**) «البقرة: 156».

ثم قال رضي الله عنه:

الزُّهْدُ أَعَمُّ مِنَ الوَرَعِ، لأَنَ الوَرَعَ اتِّقَاءٌ، وَالزُّهْدَ قَطْعُ الكُلِّ

إلا أن الزهد ينقسم إلى قسمين، زهد فيما في يديه، وزهد فيما سوى الله في الجملة، فصاحب هذا المقام الثاني زاهد حتى فيما عند الله، فهو لا يبغي بمحبوبه بدلاً ولا يرقى لشيء في العالم من علويات وسفليات، فلو عرضت عليه الدنيا وزخرفها والآخرة ونعيمها لم يلتفت لذلك أدنى التفات، لرؤيته الكل هباءً منثوراً. ومن هنا قوله ﷺ: (**أصدق كلمة قالها الشاعر**):

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ☆ وكل نعيم لا محالة زائل

فهذا معنى زهد الخاصة، وأما زهد العامة فقد تقدم الكلام عليه.

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ لَمْ يَخْلَعِ العِذَارَ لَمْ تُرْفَعْ عَنْهُ الأَسْتَارُ

قد يطلق العذار في هذا المعنى عن كل ما سوى الله، وربما كنى به المصنف عن المألوفات النفسانية والعوائد البشرية والتقييدات العادية وعلى كل حال، من لم يخلع العذار لم ترفع عنه الأستار، إذ كل من تقيد بشيء من العوائد اعتقل واحتجب به عن ربه، ولا يتخلص المريد إلا إذا خلع الكل.

أترك جميع المراد ☆ ومل إلى الله مَيْلاَ
لا ترى في الكون سواه ☆ وفي الجميع تَجَلَّى

ثم إن الحجب والأستار قد تكررت في ألفاظ القوم حتى يشك السامع أو يعتقد أن هنالك حائلاً بين العبد وربه ولا بد من خرقه، وهو المانع، وربما يصوره أمراً محسوسا وجوديا مع أن كلاً من الحجب والأستار، والقواطع والأغيار والظروف، وما في معنى ذلك، كناية عن أمور وهمية لا حقيقة لها ولا وجود لها في الخارج، أي بين العبد وربه، ومن كان يعتقد أن الحجاب في حق الله أمر وجودي بحيث هو كالحاجز بين الشيئين فقد ضل ضلالاً بعيداً، تعالى الله عن الحصر والتقييد، تالله ما هو إلا هو، فما حجبه غيره، ولو حجبه غيره لكان قاهراً له، وكيف (**وهو القاهر فوق عباده**) **« الأنعام: 18 ».**

قال في الحكم العطائية: «وكيف يحتجب الحق بشيء، والذي يحتجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر». وفيها أيضا: «كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو أقرب إليك من كل شيء، كيف

يتصور أن يحجبه شيء، ولولاه ما كان وجود كل شيء».

فما أحسن هذه الألفاظ، قد حازت والله كل المراد، خصوصا لما أتحفها بها شارحها ابن عباد، فإنه قال: قد أبدع المصنف في هذا الفصل غاية الإبداع، وأتى فيه بما تقر به الأعين وتلذ به الأسماع، فإنه - رضي الله عنه - «ذكر جميع متعلقات الظهور، وأبطل حجابية كل ظلام ونور، وأراك فيه الحق رؤية عيان وبرهان، ورفعك من مقام الإيمان إلى أعلى مراتب الإحسان، كل ذلك في أوجز لفظ وأفصح عبارة وأتم تصريح، وألطَفِ إشارة. فلو لم يكن في هذا الكتاب إلا هذا الفصل لكان كافيًا شافيا، فجزاه الله عنا خيراً».

وحاصل الأمر ما حجب العبد عن ربه إلا عدم خروجه عن مألوفاته، فلو رفع نظره أدنى ارتفاع لوجد الحق أقرب إليه من أن يرتحل إليه. فلا جرم أنه يخلع العذار وترتفع له الأستار، ويصير خلع العذار من شعاره. قال بعضهم في هذا المعنى:

خلعت عذاري واعتذاري لابس الـ ☆ خلاعـــــة مسروراً بخلعي وخلعتي
وخلع عذاري فيك فرضي وإن أبى اقتـ ☆ رابي قـــوي والخلاعـــة سنتي
وليس بقـوي مـا استعـابوا تهتكي ☆ فأبدوا قلى واستحسنوا فيك جفوتي
وأهلي في دين الهـــوى أهله وقـــد ☆ رضوا لي عاراً واستطابوا فضيحتي
فمن شـاء فليغضب سـواك ولا أذى ☆ إذا رضيـــت عني كـــرام عشيرتي

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الأَعْرَاضِ أَدَباً فَهُوَ الحَكِيمُ المُتَأَدِّبُ

من أعرض عن الأعراض الزائلة، وذلك كل ما سوى الله في الجملة، وَاجتنبها أدباً مع الله فهو الحكيم المتأدب، وكان صالحاً لرفع الحجاب والاقتراب، لأن الحكمة تساعده وتأخذ بيده لقوله ﷺ: (**الحكمة ترفع العبد المملوك، وتجلسه مجالس الملوك**). وكفاه من الحكمة ما أظهره الله على ظاهره من إعراضه عن الوجود أدبا مع المعبود، واحتقر الخلق في نظره، أي بالإضافة لما اتضح له من تعظيم الألوهية، وصفة الجلال، فلا جرم يتسع له المجال، ويظهر له المخيل على وجود الخيال، أي لا وصول إلى الله إلا بالإعراض عما سواه. قلت:

ففارق كل الاعراض وارق لربها ☆ لأنها تزول وأنت تزول
ومن أدب الحكيم يسمح بتركها ☆ لأنه يراها ميتة مجهولا

ومن تحقق بعظمة الألوهية احتقر في نظره ما سواها من الأشياء، وأعرض عن كل شيء، لأن الأشياء إذا لم تعرف أصلها يحرم عليك النظر لها، والتمتع بها، ولا يجوز لك الوقوف معها، لأنها أجنبية منك (**قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم**) « النور: 30 » وقال أيضاً: (**ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه**) « طه: 131 ».

موسى عليه السلام لم يأخذ العصا لما تحقق الضرر منها حتى قيل له: (**خذها ولا تخف**) « سورة طه: 21 »، فأخذها بربه، ولو أخذها

بنفسه لما استطاع أخذها، خاف منها ابتداء، ثم خافته انتهاء، فكانت له معينة على ما يريد. فكذلك الدنيا هي فتنة على من جهلها، وعبرة لمن عرفها. فلهذا يجب الإعراض عنها قبل معرفتها، ورجوعها لأصلها، لأن العارف إذا رجع لها فلا يأخذها من حيث ذاتها، بل رجع لها من حيث ربها، ولو لم يتحقق له ذلك لما رجع، فهو مع الله في كل شيء، فلا يعرض عن شيء، ولا يستوحش من شيء لمعرفة الله في كل شيء. ومن فقد الله في الأشياء، لا يجوز له النظر إلى شيء بإرادته وشهوته، لأنه يقطعه عن الله وعن الوصول إليه. والحكيم هو من أعرض عن الكل أدباً مع الله، حتى إذا عرفه وناجاه في سره، وأشار له في جهره وقال له: (**خذها ولا تخف**) « طه : 21 » فيأخذها حينئذ بالله، فتكون الدنيا في يديه كعصا موسى المخبر عليها بقوله: (**أتوكؤا عليها وأهش بها على غنمي، ولي فيها مئارب أخرى**) « طه : 18 ».

الفصل الثاني عشر

في الإخـــــــلاص

قال رضي الله عنه:

لاَ يَكْمُلُ العَمَلُ إلاَّ بِالإِخْلاَصِ وَالمُرَاقَبَةِ

قال في الحكم العطائية: « الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود الإخلاص فيها ». فالعمل بدون إخلاص وبدون مراقبة معدوم لا وجود له، وربما يكون عقوبة على صاحبه. ومن لم يخلص في عمله، **فا**لاستراحة اولى به، فليس له من عمله إلا مجرد التعب والنصب، لأن الله لا يقبل العمل المشترك، فهو يريد ذرة من أعمال القلوب منوطة بمثلها من أعمال الجوارح، أفضل من الجبال من العمل بدون إخلاص. والناس مراتب في الإخلاص، فمنهم من يرى طلب الجزاء على العمل ليس بإخلاص، وهذا أشرف المنازل.

مر نبي الله عيسى - عليه الصلاة والسلام - على طائفة من العباد قد احترقوا من العبادة كأنهم الشنان البالية، فقال من أنتم؟ فقالوا: نحن عباد الله. فقال: لأي شيء تعبدتم؟ قالوا: خوفنا الله من ناره فخفنا منها. فقال حق على الله أن يؤمنكم مما خفتم منه. ثم جاوزهم. فمر بآخرين أشد عبادة منهم، فقال: لأي شيء تعبدتم؟ فقالوا: شوقنا الله إلى الجنان وما أعد فيها لأوليائه، فنحن نرجوها. فقال: حق على الله أن يعطيكم ما رجوتم، ثم جاوزهم. ومر بآخرين يتعبدون، فقال: من أنتم؟ قالوا: محبون لله عز وجل، لم نعبده

خوفاً من ناره، ولا شوقا إلى جنته، ولكن حباً له وتعظيماً لجلاله. فقال: أنتم أولياء الله حقا، معكم أمرت أن أقيم. فأقام بين أظهرهم. وفي لفظ آخر قال للأولين مخلوقاً خفتم، ومخلوقاً أحببتم، وقال للآخرين أنتم المقربون. اهـ

وما أحسن ما قيل في هذا المعنى:

خليلي قطاع الفيافي إلى العلا ☆ كثير وأن الواصلين قليل
وجوه عليها للقبول علامة ☆ وليس على كل الوجوه قبول

وعن أبي حازم المدني - رضي الله عنه - أنه كان يقول: «إني لأستحيي من ربي أن أعبده خوفا من العذاب فأكون مثل عبد السوء، إن لم يخف لم يعمل، وأستحي أن أعبده لأجل الثواب، فأكون كأجير السوء، إن لم يعط أجر عمله لم يعمل، ولكن أعبده محبة له. فما أكثر العاملين، وما أقل المخلصين».

وعدم الإخلاص في العمل ينشأ عن عدم المراقبة، فلو راقب الله العبد في عمله لما فقد الإخلاص لرؤيته العامل له، وإن كانت هذه الرؤية رؤية أيقان، لا رؤية عيان، مأخوذة من قوله ﷺ: (**أعبد الله كأنك تراه**) فهي عاملة في العمل وجود الإخلاص، وإن عدمت المراقبة يتعذر وجود الإخلاص في الغالب لغيبة العامل عن العامل له، فهو لا يرى نفسه وعمله، ولما يؤول إليه ذلك العمل من الأغراض المختلفة. فهذه حالة لا تنفك عن عادم المراقبة. وأما العارفون بالله المستحضرون لعظمته فقد تخلصوا مما يقدح في عبادتهم، فهم واقفون مع الله من حيث ذاته.

سئل معروف الكرخي - رضي الله عنه - عن الشيء الذي أهاجه

في عبادته، والانقطاع عن الخلق، فسكت، فقيل له ذكرت الموت؟ فقال: وأي شيء الموت؟ قيل له ذكرت القبر؟ قال: وأي شيء القبر؟ قيل له: أخوف من النار ورجاء في الجنة؟ فقال: وأي شيء هذا، إن من ملك هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع هذا، وإن كان بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا. اهـ

وفي هذا المعنى قلت:

رجال تاهوا في الكون عن كل ذرة ☆ فما هالهم جحيم ولا راقهم ضد
وقفوا مع الإله في كل حالة ☆ فليس لهم أرب سواه ولا قصد
عباد زهاد في الوجود كما ترى ☆ وكل له حزم إلى منتهى الحد

وناهيك قوله تعالى في معنى الإخلاص: (**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**) «البينة: 5» وفي الحديث القدسي: (**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل لي عملا أشرك فيه غيري، فأنا منه بريء**) (**ألا لله الدين الخالص**) «الزمر: 3».

ثم قال رضي الله عنه:

الإِخْلَاصُ مَا خفى عَنِ النَّفْسِ دِرَايَتُهُ، وَعَلَى المَلَكِ كِتَابَتُهُ، وَعَلَى الشَّيْطَانِ غِوَايَتُهُ، وَعَنْ الهَوَى أَمَانَتُهُ

الناس في الإخلاص مراتب، وإخلاص العارفين ما ذكره المؤلف، إلا إنه بلوغ الغاية، وقد يتعذر وجوده في عقل السامع، وربما يقول دللتني على أغرب من عنقاء مغرب. ومن ذا الذي يتصف بما ذكرت

حتى يكون عمله أخفى من كل خفي. فهذا وصف يخرج عن مقتضى البشرية، وما تضمنته حقيقتها من النسب والإضافة ودعوى الملك وغير ذلك، وأيضا يخرج عن مقتضى وظيفة الملك ومراقبته لأفعال العبيد والشيطان وغوايته، وما تقتضيه حقيقته من الإمتزاج بدم الإنسان ومقتضى الهوى وميلانه خصوصا النفس وتداخلها في كل شيء شيء، فكيف حتى يخفى ذلك عن درايتها. قلت: إن العارف يكون عمله في حضرة القدس، وهي محرمة على كل من النفس والشيطان وأعوانهما حتى الملك، لا وظيفة له هنالك. فلهذا كان عمل العارف خافياً عن كل الخلق، وكفى بخفائه حتى خفي عن نفس العامل. فإن قلت: كيف يخفى العمل عن نفس العامل له؟ قلت: إنه ليس هو العامل له في الحقيقة، إنما العامل هو الحق، فكان هو العامل والمعمول له.

وزيادة إن نفس العارف زالت، فلم يمكن العود لها، وقامت نفس الحق بدلها. ومن هذه الحيثية كان العارف لا يرى لنفسه مع نفس الحق وجوداً، ولا يثبت لها شهوداً، خرج عنها وإليها لم يعد.

وفي هذا قال من حقق المقصود:

خرجت بها عني إليها فلم أعد ☆ إلي ومثلي لا يقول برجعة
وأفردت نفسي عن خروجي تكرما ☆ فلم أرضها من بعد ذاك بصحبة
وعنيت عن إفراد نفسي بحيث لا ☆ يزاحمني إبداء وصف بحضرتي

فمن كان على هذه الحالة فهل يكون له حظ في هذا العمل؟ وكيف يكون له والحق هو العامل له، وإذا كان هو العامل له فليس يسأل عن عمله. (**لا يسأل عما يفعل وهم يسألون**) « الأنبياء : 23 »

وهذا بلوغ الغاية في الإخلاص، ولا يكون إلا بعد تصحيح البداية وهو الإخلاص المعقول حسبما دلت عليه النقول. فمن ذلك قوله تعالى: **(ألا لله الدين الخالص)** «الزمر: 3» واعبدوا الله مخلصين له الدين. والمعنى أن العبودية لله جميعا، وأن لا ترجو بعبادتك إلا وجه الله، وإن كان لك غرض غير هذا فإنك لم توف بحق الله عز وجل. قال في الحكم العطائية: «من عبده لشيء يرجوه منه أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة عنه، فما قام بحق أوصافه». وفي هذا المعنى قوله ﷺ: **(لا يكون أحدكم كالعبد السوء، إن خاف عمل، ولا كالأجير السوء، إن لم يعط الأجر لم يعمل)**. وقال أبو طالب المكي رضي الله عنه: إن سفيان الثوري كان يجالس رابعة العدوية ويقول لها: **علميني مما أفادك الله من طرائف الحكمة، وكانت تقول له: نعم الرجل أنت، ولولا أنك تحب الدنيا. وكان يعترف لها ويسلم قولها، وكان عالماً زاهداً، إلا أنه كان يؤثر كتب الحديث والإقبال على الناس وهي أبواب الدنيا. وقال لها الثوري يوماً: لكل عبد شريطة، ولكل إيمان حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ فقالت: ما عبدت الله خوفاً من النار فأكون كالعبد السوء إن خاف عمل، ولا حبًّا للجنة فأكون كالأجير السوء إن أعطى عمل، ولكن عبدته حبًّا له وشوقًّا إليه.**

وفي هذا المعنى ما نقله وهب بن منبه من الزبور، قوله: (ومن أظلم ممن عبدني لجنتي أو لناري، لو لم أخلق الجنة ولا النار لم أكن أهلاً لأن أطاع) أو كما قال عز وجل.

قد قامت جماعة من السلف على جادة هذه الطريقة واستوطنوا ربوعها، ودونوا حقيقتها. فمن ذلك قول أبي حازم المدني: إني لأستحيي من ربي أن أعبده خوفاً من العذاب فأكون كالعبد السوء إن

لم يخف لم يعمل، وأستحيي أن أعبده لأجل الثواب فأكون كالأجير السوء، إن لم يعط أجر عمله لم يعمل، ولكن أعبده محبة له: وأنشد بعضهم:

كلهم يعبدون من خوف نار ☆ ويرون النجاة حظاً جزيلا
أو بأن يسكنوا الجنان فيضحوا ☆ في رياض ويشربوا سلسبيلا
ليس لي في الجنان والنار رأي ☆ أنا لا أبتغي بحبي بديلا
قد تخللت مسلك الروح مني ☆ وبذا سمي الخليل خليلا

ومضمون كلامهم إنهم لا يرون لأنفسهم رتبة يستحقون بها الثواب، أو هنالك من عملهم ما يقيهم من وجود العقاب، بل حالهم لا حال مع الله. بضاعتهم الإفلاس، ليس معهم شيء، ولا يستحقون لشيء. العبد خلق، والعمل خلق، والثواب خلق، والعقاب خلق، **﴿ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين﴾** «الأعراف: 54».

ثم قال رضي الله عنه:

عَلاَمَةُ الإِخْلاَصِ أَنْ يَغِيبَ عَنْكَ الخَلْقُ فِي مُشَاهَدَةِ الحَقِّ

أي لا يتمحض لك أيها المريد مقام الإخلاص، إلا إذا غبت عن الخلق في شهود الحق، فتكون حينئذ مخلصاً، ويكفيك قليل العمل لما قيل: «أخلص في العمل يكفيك قليله». وقول بعضهم: إذا فتح لك جهة التعريف فلا تبالي بالعمل قل أو كثر، وما دمت ترى الخلق لن تخلص في عملك، وكيف تخلص في العمل وأنت تفعل للخلق بالخلق، فأنت خلق والآخرة خلق، فعملك بارز من الخلق إلى الخلق، وأين الحق؟ ولبعضهم:

فمن نظـر الخلـق بـالخلق ☆ عزيـــه أعمـــى البصيرة
ومن نظـر الحـق بـالحق ☆ صَـادَفَ عـلاج السريرة

وأين الإخلاص إذا كنت أيها المريد ترى نفسك وأن لها عملاً، وإنها مستحقة للثواب، فهذا عمل خالٍ من وجود الإخلاص عند المحققين، ولا نجاة لك مما أنت عليه إلا إذا غاب عنك الخلق في شهود الحق، فتكون حينئذ مخلصاً، لأن عملك يكون بالله، وليس للعبد دخول فيه البتة. فهذا هو الإخلاص عند ذوي الخصوصية، وصاحبه لا يرى لنفسه عملاً ولو صام النهار وقام الليل، فلم يرتسم ذلك في فكره، ولا يكون له أدنى اعتبار لحاله، ولا يراه لنفسه، فضلا على غيره حتى على المنهمكين في المعاصي، وسبب ذلك غيبته عن الخلق في شهود الملك الحق، فهو غائب حتى عن الإخلاص، لأن المخلص هو العامل لله وهو لا يرى لنفسه عملا، فلو تعمد الإخلاص أو عدمه، لم يقدر عليه. وهذا سر من أسرار الله بين العبد وبين ربه. لما قيل في بعض الأحاديث القدسية: (**الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببته من عبادي**).

منتهى الإخلاص منوط بالغيبة عن الخلق، فمن اتصف بما ذكرناه، من أين يدخل عليه عدم الإخلاص، ومن لم يصل إلى هذه الرتبة في الغالب يتعذر عليه وجود الإخلاص. ولولا لطف الله بخلقه لما تقبل منهم عمل عامل لما فيه من رائحة الشرك الخفي الذي هو أخفى في البشر من دبيب النمل.

الناس لهم أغراض في أعمالهم، وفي أغراضهم لزوم عدم الإخلاص في أعمالهم. وهل أخلص في العمل لله من عبده خوفا من ناره، أو طمعا في جنته، أو قام بوظائف العبادة خشية الكرام الكاتبين، أو

اجتهد في العمل لأجل الوصول، أو من شهد لنفسه عملا، أو طلب الجزاء عليه، أو رأى نفسه أعمل من غيره، كلاَّ إنه لم يبلغ حقيقة الإخلاص، إنما هو من عامة الناس، فإن كان صاحب هذا الوصف المحمود الذي عز في الوجود لم يبلغ حقيقة الإخلاص، فكيف بمن أدخل على عمله وطاعته وصيرهما معصية، وقطيعة وبلية، كمن عمل لترى عليه عند الخلق سمة العاملين، أو يذكر عندهم بما فعل. **(ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب)** «آل عمران: 188».

اللهم خلصنا من شر أنفسنا، وغيبنا عن الخلق، وغيب الخلق عنا، حتى لا يبقى لنا أدنى نظر إليهم، إنهم لم يغنوا عنك أو منك شيئا. **(ولو شئت أهلكتهم من قبل وإيّايَ)** «الأعراف: 155».

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ فِي مُعَامَلَتِهِ، تَخَلَّصَ مِنَ الدَّعْوَى الكَاذِبَةِ

عباد الله المقربون لهم معاملة مع الله في أسرارهم لم يطلع عليها ملك ولا شيطان، وقد تقدم أن الإخلاص ما خفى عن النفس درايته وعن الشيطان غوايته، وعن الملك كتابته. وبسبب إخلاصهم في الباطن ظهرت نسمته عليهم في الظاهر لأنه عنوان الباطن. فلهذا تخلصوا من الدعاوي الكاذبة بدون تحمل مشاق ولا استعمال، لاستشعارهم بقرب الحق لهم واكتفائهم بنظرهم له. وأهل هذا المقام أقل من القليل.

ثم قال رضي الله عنه:

أَهْلُ الصِّدْقِ قَلِيلٌ فِي أَهْلِ الصَّلَاحِ

لا يتحقق الصدق في العمل إلا بشهود العامل له. والمشاهدة تختلف باعتبار الصالحين. فمنهم من يراه مع العمل، ومنهم من يراه قبل وجود العمل، ومنهم من يراه ولا عمل، أي هو العامل والمعمول له. فلهذا يضعف الثواب باعتبار المراتب. والآخر هو غاية الصديقين، وكلهم في مرتبة الصلوحية باعتبار العمل الصادر منهم، وأهل الصدق في ذلك قليل. ومن عدم الصدق في الصلاح طلب الجزاء عليه. فهذا مما يقدح في صدق الصالح حيث طلب الجزاء عن عمل لم يكن له عاملا. (**ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا**) « آل عمران : 188 » قال في الحكم العطائية: « لا تطلب عوضًا على عمل لست له فاعلاً، يكفي لك من الجزاء على العمل أن كان له قابلا ». قلت:

فمن صلح الأعمال ضل في فهمه ☆ حيث بنفسه للفعل يصلح
إلا أن يرى الإله يصلح فعله ☆ وهو كميت لديه مطروح

ثم قال رضي الله عنه:

شَتَّانَ مَا بَيْنَ مَنْ هِمَتُهُ الحُورُ والقُصُورُ، وَبَيْنَ مَنْ هِمَّتُهُ رَفْعُ السُّتُورِ ودَوَامُ الحُضُورِ

الفرق واضح والحق لائح. شتان بين الجهل والعلم، والحدوث والقدم. فمن كانت همته الحور والقصور، فليس هو عبد الله على الحقيقة، لأن العبد عبد لما هو له طامع. وكفى أنه إشتاق من خلق إلى خلق، ومن كون إلى كون. قال في الحكم العطائية: « لا ترحل من كون إلى كون، فتكون كحمار الرحى، المحل الذي ارتحل منه هو الذي رجع إليه، وليس الشأن كذلك، إنما الشأن أن ترحل من الكون إلى المكون. (**وجوه يومئيذ ناضرة إلى ربها ناظِرَةٌ**) «القيامة: 23» همم العارفين تسمو لغير معروفهم، والكل عندهم هباء منثوراً.

وما مقصودهم جنات عدن ☆ ولا الحور الحسان ولا الخيام
مقصودهم وجه الحبيب وذا مناهم ☆ هذا مقصود السادة الكرام

ولنا في ذلك:

فما الحور ما القصور ما الأجر ما الذي ☆ يغنينا عن وجهك يا من وجهه الكل
فلا ورب العباد جل غرضنا ☆ ان يكون للمخلوق فيه أدنى ميل

ارفع همتك أيها المريد الصادق عن كل ما سوى الله، فإذا صح صدقك صح اقترابك. (**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**) « العنكبوت : 69 » الحق خلقك لأجله لا لغيره. (**وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون**) « الذريات : 65 » قال ابن عباس رضي الله عنه: « إلا ليعرفوني ». أعرف الله، واطلب القرب منه، فإنه أقرب إليك

من الجنة مع أنها أقرب إليك من شرك نعليك، كما أخبر بها ﷺ: (**الجنة أقرب لأحدكم من شرك نعليه، والحق أقرب إليك من ذلك**) (**ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**) «ق: 16» حتى إذا وصلت إلى الحق فلا جرم الجنة تصل إليك. فتكون خادمة لك، مسخرة لأمرك، وأنت في غنى عن ذلك، والكل من حولك.

آيش تعمل بالجنة وبالحور وأنت في حضرة تسجد لها القصور وما فيهن، حتى إذا دخلت الجنة تكون بجسمك، خارجاً عنها بقلبك فلا ترى في المظاهر إلا تجليات الظاهر، الناس يتنعمون بالمخلوق وأنت تتنعم بالخالق. فشتان بين خلق وحق. فهؤلاء عباد الله حقاً، وأحباؤه صدقاً. العارف لا يدخل الجنة إلا إذا كان غافلا فتكون عقوبة عليه، كما أن النار عقوبة للعاصين.

قيل: إن أهل الجنة يعوون في الجنة كما يعوي أهل النار في النار، وذلك إذا احتجب عن بصائرهم. العارف لا يقع بصره على الجنة إلا إذا غفل عن الحق. ولو كان حاضرا لوقع بصره على رب الجنة قبل أن يقع على الجنة. ولهذا قلنا لا يدخل الجنة إلا إذا غفل عن الحق.

ثم قال رضي الله عنه:

أَهْلُ الرِّيَاضَةِ فِي المُعَامَلَةِ مَعَ الإِلْتِفَاتِ إِلَى الأَعْمَالِ حُجِبُوا بِالأَعْمَالِ عَنِ المَعْمُولِ لَهُ، وَلَوْ حَصَّلُوا المَعْمُولَ لَهُ، لاشْتَغَلُوا بِهِ عَنْ رُؤْيَةِ أَعْمَالِهِمْ

أهل الرياضة هم المشتغلون بتصفية النفوس، وتهذيب الأخلاق، وتصحيح الأحوال، ومع شرف مقامهم ورياضتهم، لم يلتفتوا إلى الأعمال، ولو التفتوا لها واستأنسوا بها وركنوا للذتها واكتفوا بوجودها، لحجبوا بها عن المعمول له حيث جعلوها من أشرف المقاصد، فكانت لهم حجابا عن الله، لأن الأنوار تحجب المريد كما تحجبه الأغيار. وقيل: إن حجاب النور أشد على المريد من حجاب الظلمات. قال ﷺ: (**حجابه النور**) لأن حجاب الظلمة لا يستأنس به العاقل في الغالب بخلاف حجاب النور. قال بعضهم: «ربما حجبت الروح بالأنوار كما حجبت النفس بالأغيار» إذ كل ما يعوق المريد عن الوصول فهو حجاب، والحجاب قاطع على أي وجه كان. فالقرب حجاب، كما أن البعد حجاب.

ولنا في ذلك:

وإياك أن تقف بالقرب فإنه ☆ إذا لم تر الحبيب فالقرب قاطِعُ

قال مولانا عبد القادر الجيلاني - رضي الله عنه - في بعض كلامه: «الذكر حجاب، والصلاة حجاب، والصوم حجاب، وكل أنواع العبادة من حيث هي حجاب». والمراد منه على من وقف معها واحتجب عن المعمول له، إذ ليس المراد من العبادة إلا شهود

المعبود، وليس المراد بالذكر إلا شهود المذكور. والواقف مع العمل فهو مع الخلق على كل حال، لأن العمل خلق كغيره. (**والله خلقكم وما تعملون**) « الصافات : 96 » والمريد مطلوب بالخروج عن كل مخلوق. فما شرعت العبادة إلا لمجرد الانتباه ليعرف المصنوع صانعه، حتى إذا وصل إليه احتجب عن العمل بحصول المعمول له، كما كان محجوبا بالعمل أول مرة. فلهذا قال المصنف رضي الله عنه: « ولو حصلوا المعمول له لاشتغلوا به عن رؤية أعمالهم ». فهذه غاية العاملين، ومنتهى الواصلين، غابوا عن أعمالهم في شهود المعمول له، وهو (الله). لا يلتفتون لما صدر منهم، لأنهم لا يرون لأنفسهم عملا البتة.

كفاهم حيث أجرى العمل الصالح على ظاهرهم، فهم يستحيون من الله أن ينسبوه لأنفسهم، فضلا على أن يقفوا معه لما أحاط بهم من التعظيم والإجلال، فتراهم باهتين في حضرة القرب والمشاهدة، غير متأنسين بشيء سواه، ولا متوقفين على شيء غيره، تقلبهم يد العناية الإلهية بين مجاهدة ومشاهدة، صارت العبادة عادتهم والمشاهدة نسبتهم. قال سلطان العاشقين رضي الله عنه:

رجعت لأعمال العبادة عادة ☆ وأعددت أحوال الإرادة عدتي
وعدت لنسكي بعد هتكي وعدت من ☆ خلاعة بسط لانقباض بعفّتي

والعارفون قيامهم بالله، قد تولى الله أمرهم، أخذهم منهم وقام بدلهم، فكان هو العامل لعملهم، احتجبوا به عن رؤية العمل ورؤية أنفسهم، بل عن العالم بأسره.

تاهوا عن الكون من وجد ومن طرب ☆ فما استقل بهم ربع ولا طلل

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ لَمْ يَصْلُحْ لِلْمَعْرِفَةِ شُغِلَ بِرُؤْيَةِ الأَعْمَالِ

الحق عز وجل خلق الخلق ثم قسمهم أقساماً حسب المراتب الثلاثة: - الجنة وسكانها - والنار وسكانها - والحضرة الإلهية وسكانها. وكل دار إلا وأهلها من جنسها، أي خلقوا لأجلها، وكل ميسر لما خلق له. ثم أبرزهُمْ للدنيا بقدرته. (**قل كل يعمل على شاكلته**) «الإسراء: 84» (**وأصحاب اليمين ما أصاب اليمين**) (**وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال**) (**والسابقون السابقون أولائك المقربون**) «الواقعة».

أهل الجنة لا يمكن دخولهم إلى النار، كما لا يمكن دخولهم للحضرة الإلاهية من حيث تعلق الإرادة الأزلية، ولم يجعل الحق عز وجل في قلوبهم محلاً لحمل المعارف والأسرار. فمن أجل هذا اشتغلوا برؤية أعمالهم، لأنهم خلقوا لأجلها. قال أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه: «اطلع الله تبارك وتعالى على قلوب أوليائه، فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة فأشغلهم بالعبادة».

وقال سهل بن عبد الله: «إن الله تعالى يطلع على أهل قرية أو بلدة فيريد أن يَقْسِمَ لهم من نفسه قسمة فلا يجد في قلوب العباد ولا الزهاد موضعا لتلك القسمة من نفسه، فيمن عليهم أن يشغلهم بالتعبد عن نفسه». قال أبو العباس رضي الله عنه: «إن لله عباداً لم يستصلحهم لمعرفته وأشغلهم بخدمته، وله عباد لم يستصلحهم لخدمته وأهلهم لمعرفته». وقد جمعت هذه المعاني في قول صاحب الحكم العطائية حيث قال: «قوم أقامهم الله لخدمته، وقوم اختصهم لمحبته».

(**كلاًّ نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظورا**) «الإسراء: 20» فتحصّل من هذا أن معرفة الله ليست مكتسبة بالعمل، إنما هي تحفة إلاهية يقذفها الله عز وجل في قلوب من يشاء من عباده (**ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا**) «الشورى: 52».

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ طَلَبَ الحَقَّ مِنْ جِهَةِ الفضْل وَصَلَ إِلَيْهِ

وأما من طلبه من جهة العمل قطع به ولن يصل العبد إلى الله ما دام ملاحظا لعمله لأنه لا مدخل على الحق عز وجل إلا من باب الفضل. ومتى أردت أن تدخل على الله بشيء من كواسبك، كان ذلك الشيء حاجزاً بينك وبين ربك، لأنه لا دليل على الله سواه، ولا وصول إليه بغيره. إياك أيها المريد أن تجعل عملك عمدة في الدخول على الله، فبه لا يجيء شيء. (**ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً**) «النور: 21».

ولبعضهم:

قد كنت أحسب أن وصلك يشترى ☆ بنفائس الأموال والأرباح
وظننت أن حبك هيّنٌ ☆ تفنى عليه كرائم الأرواح
حتى رأيتك تجتبي وتخص من ☆ تختاره بلطائف الأمناح
فعلمت أنك لا تنال بحيلةٍ ☆ فلويت رأسي تحت طي جناح
وجعلت في عش الغرام إقامتي ☆ فيه غدوي دائما ورواحي

أطلب أخي مولاك من جهة الفضل، واجعل مطيتك الشوق والإضطرار في طلبه، واغفل عن عملك كيفما كان حالة التوجه، فالوقوف مع العمل في طريق الله مذموم من حيث هو، وأنت مطلوب بالخروج عن عملك وعلمك. وكيف تروم الوصول به، وهو كله معلول مدخول، ومحشو بالآفات، وربما تجد الطاعة كم فيها من معصية إذا فتشتها. ولا يسلم عمل المريد إلا بعد المشاهدة والتفريد. فالمقام الذي تطلبه عزيز جداً، غني عنك وعن أعمالك، وسترى بجانبه الطاعة والمعصية على حد سواء. والله غني عمّا تعمل. وكيف تريد الدخول عليه بعملك؟ أي شيء أنت وعملك حتى أنك تفتخر به وتزعم أنك قدمت إليه شيئاً تستحق به الدخول، فتلك هي القطيعة نفسها. فإن شئت أن تنجو، فلا ترى لنفسك عملا، بل أقصده فرداً متجرداً من العلم والعمل، إن الله فرد، ويحب الفرد. وقل كما قال:

وإن طلبوني في حقوق هـواهم ☆ فـــإني فقير لا علي ولا معي

وإذا قيل لك بماذا جئت فاستعر هذا الجواب:

بانكساري بـذلتي بخضـوعي ☆ بافتقـاري بفـاقتي بغنـاك
لا تكلني إنى قـوى جلـد خـا ☆ ن فـإني أصبحت مـن ضعفـاك
كنت تجفو وكان لي بعض صبر ☆ أحسن الله في اصطبـاري عزاك
كم صـدود عسـاك ترحم شكـوا ☆ ي ولو بـاستماع قـول عسـاك
شنع المرجفون عنـك بهجـري ☆ وأشـاعوا أني سلـوت هـواك

قال في الحكم العطائية: «لو أنك لا تصل إليه إلاّ بعد فناء مساويك ومحو دعاويك، لم تصل إليه أبدا، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه ونعتك بنعته، فوصلك إليه بما منه

إليك، لا بما منك إليه». وقال أيضا: «لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلاً للقبول». فأنت أيها العبد، عدم محض، فارجع لنفسك، وتحقق بأوصافك، فإنه يمدك بأوصافه، ويفرغ عليك من كرمه. أنت مطلوب أن تتحبب للحق بما يريد بدون أن ترى لنفسك استحقاقاً للوصول، أو تقول بالعمل يكون القبول. ففضل الله ليس معللا بشيء، فربما قضى عليك بالذنب، فيكون سببًا في القرب، وهل هذا إلا محض الفضل ومجرد النوال، وما ذكرنا لك هذا إلا لتكون طالب الدخول على الله من جهة الفضل، خشية أن يتعذر عليك الحال.

ولهذا قال رضي الله عنه:

انْكِسَارُ العَاصِي خَيْرٌ مِنْ صَوْلَةِ المُطِيعِ

لا يوجد في الطاعة ما يفيد القرب أكثر من انكسار القلب، لقول الحق عز وجل في بعض كلامه: (**أنا عند المنكسرة قلوبهم**) فأينما وجدت منكسر القلب إلا وتجد فيه رائحة القرب، وأين الحضور مع المولى لمن كانت له صولة؟ قال ﷺ: (**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**). وليس المراد من السجود وضع الجبهة على الأرض، بل المراد من ذلك الإنكسار والتذلل. ورد في الخبر عن سيد البشر ﷺ: (**يقول الحق تبارك وتعالى: لا يدخل جنتي من لم يتواضع لعظمتي**). قال في الحكم العطائية: «معصية أورثتك ذلة واستحقاراً خير من طاعة أورثتك عزاً واستكباراً». وأي طاعة مع الصولة، وأي معصية مع الانكسار.

منكسر القلب كله قرب، يرى نفسه هو أحقر الموجودات،

يستغيث في كل الأوقات، ويقول النجاة! النجاة! (**أمن يجب المضطر إذا دعاه**) « النمل : 62 » فلا جرم يأخذ الله بيده ويغمسه في بحر رحمته. (**فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات**) « الفرقان : 70 ».

روي في الخبر أن داود – عليه السلام – كان يقول: (**اللهم لا تغفر للعاصين**) فعاتبه الله في ذلك، فصار يقول: (**اللهم أغفر للعاصين عسى أن تغفر لداود معهم**). فلا دخول على الله إلا من باب الإنكسار، وأن الله لا يقبل من عباده إلا المذنب، أي منكسر القلب، المقر بذنوبه، الجازم أن لا يعود لمثلها. (**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**). (**إن الله يحب التوابين و يحب المتطهر ين**) «البقرة: 222».

المفتخر بالطاعة مريب، فكم أخذ الله بيد المذنبين المنكسرة قلوبهم، وكم أبعد الطائعين المتعززين بطاعتهم المعتمدين على أعمالهم. ولهذا قال في الحكم العطائية: « رُبَّمَا قضى عليك بالذنب، فكان سببا لك في الوصول ». ولا تحسب أخي أن القوم يمدحون المذنبين، فحشاهم من ذلك، إنما يمدحون انكسار القلب الذي هو أرجح من عمل الثقلين.

إياك والصولة والعجب بالعمل – بارك الله فيك – فإن ذلك لا يغنيك من الله شيئا. والرجوع إلى الله لا يكون إلا بالذل والانكسار.

قلت في هذا المعنى:

فليس لي شفيـــع ســـوى مـــذلتي ☆ وضعفي وتقصيري وحزني بين الورى
تراني بـاكي العين تكفيـك حـالتي ☆ مهينـا مكسـور القلـب إني كما ترى
تشفعـــت إلاهي إليـــك بزلتي ☆ فلست جميل الفعل أحدث منـه ذكراً

ثم قال رضي الله عنه:

لاَ يَنْفَعُ مَعَ الكِبْرِ عَمَلٌ، وَلاَ يَضُرُّ مَعَ التَّوَاضُعِ بِطَالَةٌ

لا عمل مع الكبر، لأنه معصية مستمرة، ولا بطالة مع التواضع لأنها طاعة مستمرة، وفي هذا المعنى قيل: « من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر خذله الله ».

تواضع تكن كالبدر يبصره الورى ☆ على صفحة الماء وهو رافع
ولا تكن كالدخان رفع نفسه ☆ إلى عنان السماء وهو واضع

وأي عمل مع الكبر وأي بطالة مع التواضع، ركعتان من متواضع أفضل عند الله من متكبر وعمله. فإن عمل المتكبر لا يزيده من الله إلا بعداً، فهو صورة بلا معنى، وشبح بلا روح، وقشر بلا لب، وبعد في بعد، وقطيعة في قطيعة.

إياك والكبر فإنه مفسد للعمل، وكيف تركن إليه وأنت ترى أحوال العارفين منحصرة في وجود التواضع وتهذيب الأخلاق، مقتبسة من أحواله ﷺ. وقد بلغك ما كان عليه من التواضع مع شرفه وعلو مرتبته وقد قال: (**إني أجلس كما يجلس العبد وآكل كما يأكل العبد**) وإن كنت في غمرةٍ عن سيرته فراجعها في محلها. فهل ترى فيما يرخص في أدنى شيء من الكبر؟ كلا! وقد نهى عنه وتبرأ منه حالاً ومقالاً. وحاصل الأمر، إن صاحب الكبر لا يصلح إلا للنار، لأنها مثوى المتكبرين. وقد تقدم لك قوله تعالى: في بعض الأحاديث القدسية: (**لا يدخل جنتي من لم يتواضع لعظمتي**).

وفي بعض الأحاديث النبوية: (**لا يدخل الجنة من في قلبه مقدار حبة الخردل من كبر**) أو كما قال ﷺ: (**يقول الحق تبارك وتعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني فيهما قصمته بناري**) وأما حضرة الله فهي محرمة على من فيه أدنى رائحة من كبر. وكل من رأى نفسه عظيماً فهو ساقط من عين الله، ومن أحقر الأشياء في نظر الخلق.

قال بعضهم:

ومن حدثته نفسه بتكبر ☆ تجده صغيراً في عيون الأقلة

ألا تتواضع أيها المسكين، أي شيء أنت حتى تتكبر (**إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا**) «الإسراء: 37» فأنت أحقر الأشياء، لو تأملت في مساوي نفسك، وفي ابتداء أمرك، أولك نطفة، وآخرك جيفة، وما بين ذلك حامل العذرة، ألا ترجع إلى الله من هذه البلية العظمى التي كانت سبباً في طرد الشيطان من حضرة الله. (**فما يكون لك أن تتكبر فيها**) «الأعراف: 13» فاجتهد - بارك الله فيك - في زوال هذا المرض القتال، واسأل عن الأطباء الماهرين، لعل الله يأخذ بيدك، وينقذك مما أنت عليه (**وما ذلك على الله بعزيز**) «إبراهيم: 20».

ثم قال رضي الله عنه:

العِبَادَةُ تُنْجِيكَ مِنْ طُغْيَانِ العِلْمِ وَالزُّهْدِ

النفس في كل شيء تطغى، والعبادة تمنعها. والعلم إذا لم يكن للعمل يكون للطغيان، لأنه خال من الخشية.

العلم النافع هو علم القلب، لا علم اللسان لقوله ﷺ: (**العلم علمان، علم اللسان، فذلك حجة الله على ابن آدم، وعلم القلب، فذلك العلم النافع**) فمن اتصف بالعلم دون الاتصاف بحقيقته خرج عن حده، ودخل في حيز قوله ﷺ: (**فساق أمتي قراؤها**) وفائدة العلم تظهر عند العمل به، وهي نفس العبادة التي تنجي العالم من الطغيان.

أما العلم الذي لم يزدد به صاحبه انكساراً وخضوعاً فهو خارج عن العلم المشروع الممدوح في الإسلام. بل ينبغي للعلم أن يكون داخلاً تحت حياطة العبودية، خارجا عن الطغيان، فمن اتصف بالعبودية لم يزدد بعلمه إلا ذبولاً وانكساراً. والناس في ذلك طبقات. (**إنما يخشى الله من عباده العلماء**) « فاطر : 28 » كما أن الزاهد إذا عجب بزهده في الغالب يطغى والعبودية تمنعه كما تقدم.

تلبس أيها المريد بأوصاف العبودية، واجعل كل وصف داخلاً تحت حياطتها، وهي المتصرفة في الكل، تنج من النفس وطغيانها. (**كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى**) « العلق : 7 » خصوصا إذا اتصفت بهذين الوصفين العزيزين: العلم والزهد. فلا جرم أنك ترى نفسك حائزة لكل شرف، فتنقطع بذلك عن الله حيث لحظت ما لها من الكمال، وغفلت عما احتوت عليه من النقصان. والمقصود من

العلم والزهد وما في معناهما، هو تحقيق العبودية لله عز جل. والعبودية مقتضاها منك خلو الفكر مما يطغيك حتى إذا اتصف المريد بما ذكرناه، وكان عبداً لله في معاملته، فقد قام بما وجب عليه.

ثم قال رضي الله عنه:

لاَتَكُونُ لَهُ عَبْداً وَلِغَيْرِهِ فِيكَ بَقِيَّةُ رِقٍّ

أي فلا تدعي أيها المريد العبودية لله، وفيك بقية لغيره فتكون مبغضا، فلم تتم لك العبودية إلا إذا تحررت من رق الغير، ولم يبق فيك أدنى نصيب، وحينئذ تكون عبداً لله من كل الوجوه. وأما إذا كان لك أدنى ميلان لشيء، فتكون في ربقته وتحت حياطته. فاترك يا أخي الكل في جانب الله جليلاً وحقيراً، دنيا وأخرى، علما وعملاً، ففي وجه من تهوى الجلال والجمال، وقل كمن قال:

تركت للناس دنياهم ودينهم ☆ شغلا بك يا ديني ودنيايء
تركت للناس ما تهوى نفوسهم ☆ من عز ومن علو ومن جاه
فصار يحسدني من كنت أحسده ☆ وصرت مولى الورى مذ صرت مولايء

وإياك أن يأخذك شيء لجنسه، فإن الله غيور على العبد أن يقف مع غيره، ولا يقف مع غيره إلا الجاهل بمرتبته.

ولابن الفارض رضي الله عنه:

قال لي حسن كل شيء تجلى ☆ بي تملى فقلت قصدي وراك
لي حبيب أراك فيه معنى ☆ غر غيري وفيه معنى أراك
إن تولى على النفوس تولى ☆ أو تجلى يستعبد النساك

يـ ي حتى الحال المستعمل الذي يقصد به بعض الناس المباهاة ليذكر بذلك. فصاحبه لن يزداد من الله إلا بعداً. والكلام على الحال

فيه عوضت عن هداي ضلالاً ☆ ورشادي غيًّا وستري انتهاك
وحب القلب حبه فالتفاني ☆ لك شرك ولا أرى الاشراك

فهذا حال من حقق العبودية لله عز وجل، لا يرضى سواه بدلا. إياك أخي أن تكون عبداً للغير فتصبح أسيراً، وكن عبداً لله تضح أميراً، ولا تطمع في شيء سواه، ولا ترق، ولا تشتق إليه، دع الكل يسعى إليك، وكن غنيا بالله عن الخلق دنيا وأخرى. فالكل خلق لأجلك، وأنت خلقت لله. العبد وماله لسيده. فلا تتعدى همتك لغيره، لأن الكريم لا يتجاوز الأمل.

مرت رابعة العدوية برجل يذكر الجنة وما أَعَدَّ الله فيها للمحسنين. فقالت له: يا هذا إلى متى تشتغل بالأغيار عن الواحد الجبار؟ ويحك! عليك بالجار ثم الدار. فقال لها: اذهبي يا مجنونة. فقالت: أنا لست بمجنونة، وإنما المجنون من لم يفهم ما أقول. يا مسكين الجنة سجن من لم يكن الله أنيسه، والنار بستان من كان الله مؤنسه وجليسه. ألا ترى إلى آدم - عليه السلام - لما كان في الجنة يرتعى ويتهنى، فلما تعرض للأكل صارت عليه سجنا. وإبراهيم الخليل لما حفظ سره لمولاه قربه واجتباه، وعندما طرح في النار، صارت عليه برداً وسلاماً.

الفصل الثالث عشر

في المحبـــة والإشتيـــاق

قال رضي الله عنه:

المُهْمَلُ مِنَ الأَحْوَالِ وَالأَعْمَالِ لاَ يَصْلُحُ لِبِسَاطِ الحَقِّ

الخالي من هذين الوصفين فارغ الظاهر والباطن لا يصلح لبساط الحق، أي لحضرته والنظر إلى وجهه حيث لم يوجد فيه ما يدل على صلاحيته، وكأنه يشير لمن لا يصلح للتربية. وذلك أن المريد إذا فقد الوصفين لم يصلح للإقتراب، أي لا يكون أهلاً أن يعد من جملة السائرين لفراغه من الأحوال والأعمال ووجود تكاسله وقلة نشاطه. وقد تقدم أن أساس هذا الشأن مبني على الجد والإجتهاد، والمراد بالأحوال جند من الواردات الإلهية ترد على القلب تحركه بعد سكونه، وتقلقه بعد روعته، وقد تظهر على الجوارح فيهتز الجسد ويتمايل، وعلى العين فتدمع ولها أثر ينبي على صلاحية صاحبه وشهود عدوله، وقد قيل في هذا المعنى:

أتيت لقاضي الحب قلت أحبتي ☆ جفوني وقالوا أنت في الحب مدعي
وعندي شهود للصبابة والأسى ☆ يزكون دعواي إذا جئت أدعى
سهادي ووجدي واكتئابي ولوعتي ☆ وسقمي وشوقي واصفراري وأدمعي

فصاحب هذا الحال لا يبعد عن درجة الكمال. ولا تقس هذا يا أخي على الحال المستعمل الذي يقصد به بعض الناس المباهاة ليذكر بذلك. فصاحبه لن يزداد من الله إلا بعداً. والكلام على الحال

الطارىء على المتوجه لحضرة الله، وذلك لائح يلوح عليه، تارة يبكيه ببكاء وطرب، وتارة بتعب ونصب، وتارة بتمزيق وعذاب.

قال ذو النون المصري - رحمة الله عليه -: بلغني أن بالجبل المقطم جارية متعبدة، فأحببت أن أزورها، فخرجت إلى الجبل في طلبها فلم أجدها، فلقيت جماعة من المتعبدين، فسألتهم عنها. فقالوا: أتسأل عن المجانين وتترك العقلاء. فقلت: دلوني عليها، وإن كانت مجنونة. فقالوا نراها تجوز بنا تقع مرة، وتقوم مرة، وتصيح مرة، وتسكت مرة، وتبكي مرة، وتضحك مرة. فقلت: دلوني عليها، فقال أحدهم: تراها في الوادي الفلاني. فخرجت في طلبها، فلما أشرفت عليها سمعت لها صوتاً ضعيفاً وهي تقول:

يا ذا الذي أنس الفؤاد بذكره ☆ أنت الذي ما إن سواه أريد
يا منيتي دون الأنام وبغيتي ☆ يا من له كل الأنام عبيد
تفنى الليالي والزمان بأسره ☆ وهواك غض في الفؤاد جديد

قال فاتبعت الصوت فإذا أنا بالجارية وهي جالسة على صخرة عظيمة فسلمت عليها، فردت علي السلام، وقالت يا ذا النون، مالك وللمجانين؟ فقلت لها: أمجنونة أنت؟ فقالت: لو لم أكن مجنونة لما نودي علي بالجنون. قلت: وما الذي جننك؟ قالت: يا ذا النون حبه خبلني ووجده أقلقني، وشوقه تيمني. فقلت: وأين محل الشوق منك؟ قالت: يا ذا النون، الحب في القلب، والشوق في الفؤاد، والوجد في السر، ثم بكت بكاءً شديداً حتى غشي عليها، فلما أفاقت قالت: آه من فرط المحبة يا ذا النون، ها هو موت المحبين، ثم صاحت صيحة عظيمة وسقطت على الأرض، فحركتها فإذا هي ميتة رحمة الله عليها.

فهذا مثل أهل الحال الصادق، فمن وجد فيه فقد وجدت فيه أهلية لقبول سر الألوهية، وقد تظهر سمته على صاحبه قبل توجهه لله، يعرف بها عند القوم، وقد جعلوها مقياساً على ذلك حتى قالوا: « من لم يطربه المزمار، وتهزهزه الأشعار، لم يصلح لحمل الأسرار ». وكم للمصنف في هذا المعنى من الترنمات، ومن ذلك قوله:

بكت السحاب فأضحكت لبكائها ☆ زهر الرياض وفاضت الأنهار
قد أقبلت شمس النهار بحلة ☆ خضراء وفي أسرارها أسرار
وأتى الربيع بخيله وجنوده ☆ فتمتعت في حسنه الأبصار
والورد نادى بالورود إلى الجنى ☆ فتسابق الأطيار والأشجار
والكأس ترقص والعقار تشعشعت ☆ والجو يضحك والحبيب يزار
والعود للغيد الحسان مجاوب ☆ والطار أخفى صوته المزمار
لا تحسب الزَّمْرَ الحرام مرادنا ☆ مزمارنا التسبيح والأذكار
وشرابنا من لطفه وغناؤنا ☆ نعم الحبيب الواحد القهار
والعود عادات الجميل وكأسنا ☆ كأس الكياسة والعقار وقار

فهذا شأن من رق قلبه، وتعشقت روحه، وصفا سره، تراه يتمايل من نسيم القرب كأنه غصن رطب. وقد قال في حقهم من جرب الحب:

حيارى فلا يدرون أين توجهوا ☆ فليس لهم ذكر وليس لهم فكر
فيطربهم برق تألق بالحمى ☆ بسلع له زار
يسكرهم طيب النسيم إذا سرى ☆ تظن بهم سحرا وليس بهم سحر
وتبكيهم ورق الحمائم في الدجى ☆ إذا ما بكت من ليس يدري له وكر
بحزن وتلحين تجاوبنا بما ☆ تذوب له الأكباد والجلمد الصخر

مر الحسن بن الصباغ ببستان فوجد حمامة على شجرة تغرد بصوت شجي، فوقف ثم تواجد وأنشد يقول:

حمـــام الأيـــك ألا فاخبرينـــا ☆ بمـــن تهتفين ومـــن تنادينـــا
فقد سقت ويحك نـوح القلـوب ☆ فـأجريت ويحك مـاء معينـا
تعـــالي نقم مَأْتَمًـــا للفـــراق ☆ ونندب أحبابنـا الظاعنينـا
وأسعدك بـالنوح كي تسعـديني ☆ كذاك الحزين يـواسي الحزينـا

ثم بكى بكاء طويلا وأنشد يقول:

أتبكي حمام الأيك من فقد إلفها ☆ وأصبر عنها كيـف ذاك يكـون
وَلِمَ أنا لا أبكي وأندب ما مضى ☆ ودع الهـوى بين الضلـوع دفين
وقد كان قلبي قبل حبـه قاسيا ☆ فإن دامت البلوى فسوف يلين
أَلاَ هَلْ على الشوق المبرح مسعد ☆ وهل لي على الوجد الشديد معين
سلام على قلبي تعرض بـالهوى ☆ سلام عليـــه أحرقتـــه شجـــون
وعذبـــه هم يهيـــج حزنـــه ☆ فللهم والأحـزان فيـه فنـون

ثم خر مغشيا عليه. فلما أفاق أنشد يقول:

غن لي بـالفراق صوتـا حزينـا ☆ إن بين الضلـــوع داء دفينـــا
ثم جـد لي بـدمع عينك بـالله ☆ وكـــن لي على البكاء معينـــا
فسأبكي الدماء فضلا على الدمع ☆ ومثـل الفـراق أبكي العيونـا
كل أمر الدنيـــــا حقير يسير ☆ من أن يفقـد القـرين القرينـا

قال: فجرى الدمع من مقلتيه، وسقطت الحمامة إلى الأرض بين يدي الشيخ وجعلت تصفق بجناحيها حتى ماتت. فأنشد يقول شعراً:

وردنا على أن الهوى مشرب عذب ☆ وحط بـه السفر أشواقـه الركب

فلما وردنـا مـاءه ألهب الظمـأ ☆ ألا من رأى الظمآن ألهمه الشرب
أهب الهوى يـذكي علي زنـاده ☆ أيا قادحا أمسك فقد قلق الحب
ولـو أنني أخليـت قلبي لغيركم ☆ من الناس محبوبا لما وسع القلب
ترى تـمـح الأيـام منكم بنظـرة ☆ فتلقى على الأيدى الرسائل والكتب
أعـاتبكم لا على مـلال ولا قلى ☆ ولكن إذا صح الهوى حسن العتب

فهذا حال أهل الأحوال، وإن كان المريد خاليا من الحال، فلابد أن توجد فيه خاصية من الأعمال، وكيف لا، وطريق القوم دائرة بين أحوال وأعمال، والمهمل منهما لا يصلح لبساط القرب. ولنقتصر على بعض ما روي عن الإمام علي - كرم الله وجهه -: أن عابدا جاءه يقال له همَّام، فقال له: صف لي بعض المتقين حتى كأني أنظر إليهم. فقال: هم الذين منطقهم الصواب، وملبسهم الإقتصاد، ومشيهم التواضع، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم، نزلت أنفسهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء، ولولا الأجل الذي كتب الله لهم لما استقرت أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقاً إلى ربهم، عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فقلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أياما قصيرة أعقبتهم راحة طويلة، تجارة رابحة صيرها لهم ربهم، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها وأسرتهم، ففدوا أنفسهم منها.

أما الليل فما لوى أقدامهم، يرتلون لأجزاء القرءان ترتيلا، فإذا مروا بآية فيها تشويق، ركنوا إليها طمعا، وتعطلت نفوسهم إليها تشوقاً، وإذا مروا بآية فيها تخويف صغوا إليها بمسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم، فهم جاثون على ركبهم يطلبون من الله فكاك رقابهم.

وأما النهار فحلماء علماء، أبرار، أتقياء، قد براهم الخوف بري القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض، لا يرضون من أعمالهم بالقليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون، إذا ركن أحدهم خاف مما يقال له، فيقول أنا أعلم من غيري بنفسي، وربي أعلم بنفسي مني، اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون.

فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في الدين، وحزنا في لين، وإيماناً في يقين، وحرصاً في علم، وعملا في حلم، وقصداً في غنى وخشوعا في عبادة، وتحملا في فاقة، وصبراً في شدة، وطلباً في حلال، ونشاطا في هدى، وتحرجاً عن طمع، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، يمسي وهمه الشكر، ويصبح وهمه الذكر. يبيت حذراً، ويصبح فرحاً، حذراً من الغفلة، وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة. إذا استصعبت عليه نفسه فيما يكره لم يعطها سؤلها فيما تحب. قرت عينه فيما لا يزال، وزهدت فيما لا يبقى، يمزج الحلم بالعلم والقول بالعمل. ترى قريبا أمله قليلا زلله. خاشعاً قلبه، خائفة نفسه، سهلا أمره، حريزاً دينه، ميتة شهوته، كظوما غيظه. الخير منه مأمول، والشر منه مأمون، إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين، يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، بعيدا محبته، لينا قوله، غائبا منكره، حاضراً معروفه، في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور، لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحب. يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه، لا يضيع ما استحفظ ولا ينابز بالألقاب، ولا يضر بالجار، ولا يشمت

بالمصائب، إن بغي عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له. نفسه منه في غناء، والناس منه في راحة، أتعب نفسه لأخرته وأراح الناس من نفسه. بعده عمن تباعد عنه زهداً ونزاهة. ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة، ليس تباعده بكبر وعظمة، ولا دنوه بمكر وخديعة.

فصعق همّام صعقة كانت فيها نفسه، فقال علي كرم الله وجهه: أما والله كنت أخافها عليه. ثم قال: هكذا والله تصنع المواعظ البليغة بأهلها. فيا له من حال جميل، فما ذكرناه إلا على وجه التعظيم والتبجيل.

ثم قال رضي الله عنه:

الأَحْوَالُ مَالِكَةٌ لِأَهْلِ البِدَايَةِ فَهِيَ تُصَرِّفُهُمْ، ومَمْلُوكَةٌ لِأَهْلِ النِّهَايَات فَهُمْ يُصَرِّفُونَهَا

أهل البداية مملوكون للأحوال، فهي تصرفهم كما يصرف المخيل وجود الخيال. وقد يؤثر الحال في أكثرهم حتى يخرجهم عن عادتهم، ويفسد مزاجهم، ويضاعف قواهم، وربما يقضي عليهم بسببه كما تقدم قبل هذا.

وأما أهل النهاية فتكون الأحوال مملوكة لهم. فهم يصرفونها، لا تؤثر في ظواهرهم لما فيه من القدم الراسخ. (**وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب**)، « النمل : 88 » ولهذا يقال: « إن الطريقة أولها جنون ووسطها فنون وآخرها سكون ».

ترى أكابر العلماء في نهايتهم ساكني الظواهر كأنهم لا خبر لهم بالحال. وقد كان الجنيد - رضي الله عنه - ثابتاً حتى يوشك أنه فاقد الاشتياق

عند أهل الأشواق. ومن ذلك ما يحكى عنه أنه قال: حجبت سنة من السنين على الوحدة، وجاورت بمكة شرفها الله، فكنت إذا جن الليل دخلت الطواف فبينما أنا أطوف وإذا بجارية تطوف بالبيت وهي تقول:

أبى الحب أن يخفى وكم ما كتمته ☆ فأصبح عندي قد أناخ وطنبا
إذا اشتد شوقي هام قلبي بذكره ☆ وإن رمت قربا من حبيبي تقربا
ويمنحني وصلاً فأحيا به له ☆ ويسكرني حتى ألذ وأطربا

قال الجنيد فقلت لها: يا جارية أما تتقين الله، تتكلمين بمثل هذا الكلام في مثل هذا المقام. فالتفتت إلي وقالت: يا جنيد لا تدخل بينه وبين محبيه، ثم أنشدت تقول:

لولا التُّوقى لم ترني ☆ هجرت طيب الوسن
إن الهوى شردني ☆ كما ترى عن وطني
قد همت من حبي له ☆ فحبه هيمني

ثم قالت: يا جنيد أنت تطوف بالبيت، فهل ترى رب البيت؟ فقلت: هذه دعوى تحتاج إلى إقامة حجة. فرفعت رأسها إلى السماء وقالت: سبحانك سبحانك ما أعظم شأنك وما أعز سلطانك! خلق كالأحجار يطوفون بالإنكار على أهل الأسرار ثم أنشدت:

يطوفون بالبيت العتيق تقربا ☆ إليك وهم أقسى قلوبا من الصخر
فلو يخلصون السر جادت صفاتهم ☆ وقامت صفات الحق منهم على الذكر

قال الجنيد: فأغمي علي من كلامها، فلما أفقت طلبتها، فلم أجدها. مع أن الجنيد - رضي الله عنه - كان من أكابر العارفين، وحيث لم يظهر ذلك على ظاهره، ظنت الجارية أنه فاقد لما هي عليه.

مر السيد علي على أبي بكر - رضوان الله عليهما - فوجده يتمايل من شدة معرفته بالله، فقال له أبو بكر: هكذا كنا، ثم قست قلوبنا. ويعني بذلك رسوخ القدم. فكلما يسكن العارف في ظاهره، إلا ويزداد حركة في باطنه، منذ دخل إلى ميدان المعرفة لم تسكن له روعة في الباطن إلى أبد الآبد (**وللآخرة خير لك من الأولى**) «الضحى: 4» ومع هذا يكون مصرفا للأحوال لا هي تصرفه.

تجد العارف يتصرف في المقامين مع أهل النهاية كأنه محجوب، ومع أهل البداية كأنه مجذوب، جامع الضدين لابس اللونين، تراه واحداً وفيه إثنان.

وتراني في هواها لابس اللونين ☆ غيرة مني عليها أن ترى بالعين

ثم قال رضي الله عنه:

فَالْمُقَرَّبُ مَسْرُورٌ بِقُرْبِهِ، وَالْمُحِبُّ مُعَذَّبٌ بِحُبِّهِ

المنتسبون إلى الله طبقات: محب ومحبوب. أو تقول: طالب ومطلوب. فالمحب معذب بحبه، لأنه يشتهي القرب، يتقلب على جمر الشوق، متألم بآلام العشق، لا يلتذ له جنب ولا ظهر.

سئل الشيخ عبد القادر الجيلي - رضوان الله عليه - عن المحبة فقال: هي تشويش بالقلب يقع من المحبوب فتصير الدنيا عليه ضيقة كحلقة خاتم، ومجمع مأتم. والحب سكر لا صحو معه، وذكر لا محو معه، وقلق لا سكون فيه، وخلوص المحبوب بكل وجه سراً وعلانية بإيثار اضطرار، لا بإيثار اختيار، وبإرادة خلقة لا بإرادة

كلفة. والحب العمى عن غير المحبوب غيرة عليه. والعمى عن المحبوب هيبة له، فهو عمى كله. والمحبوبون سكارى لا يصحون إلا بمشاهدة محبوبهم، مرضى لا يشفون إلا بملاحظة مطلوبهم، حيارى لا يأنسون بغير مولاهم، ولا يلهجون بغير ذكره، ولا يجيبون غير داعيه. ثم تمثل بقول مجنون ليلى:

لقد لامني في حب ليلى أقاربي ☆ أخي وابن عمي وخالي وخاليا
فلو كنت أعمى أخبط الأرض بالعصا ☆ أصم فنادتني أجيب المناديا
وأخرج من بين البيوت لعلني ☆ أحدث عنك النفس يا ليل خاليا
وإني لأستغشي وما بي غشية ☆ لعلّ خيالا منك يلقى خياليا
معذبتي لولاك ما كنت هائما ☆ أدور على الأطلال في البدء عاليا
فإن تمنعوا ليلى وحسن حديثها ☆ فلم تمنعوا مني البكا وقلاقيا
وأشهد عند الله أني أحبها ☆ وهذا لها عندي وما عندها ليا
أحب من الأسماء ما وافق إسمها ☆ واسمهم أو كان منه مدانيا
يقول أناس كان مجنون عامر ☆ يروم سُلُوًّا قلت إني لما بيا
عذولي ذا داء الهيام أصابني ☆ فإياك عني لا يكن بك ما بيا
إذا ما طواك الدهر يا أم مالك ☆ فشأن المنايا القاضيات وشأنيا

وللأمير عبد القادر رضي الله عنه:

ليالي صدود وانقطاع وجفوة ☆ وهجران سادة ولا ذكر الهجر
فأيامها أضحت قتاما ودجنة ☆ لياليها لا نجم يضيء ولا بدر
فراشي فيها حشوه الهم والضنى ☆ فلا التذ لي جنب ولا التذ لي ظهر
ليالي أنادي والفؤاد متيم ☆ ونار الجوى تشوي لما قد حوى الصدر
أمولاي طال الهجر وانقطع الصبر ☆ أمولاي هذا الليل هل بعده فجر

فهذا حال المحب متعذب في حبه. وأما المحبوب فهو متنعم بقربه، حيث ارتضاه الحق و جذبه لحضرته، فصار يتنعم في رياض القرب والمشاهدة، لم يتحمل شيئاً من أنواع المكابدة والمجاهدة، اختصه الحق تبارك وتعالى بمحبته له من صنف قوله تعالى: (**فسوف ياتي الله بقوم يحبهم**) « المائدة : 54 ».

وأما الأول وهو المحب المعذب في حبه داخل في صنف الشق الثاني من قوله تعالى: (**ويحبونه**).

قال في الحكم العطائية: « قوم أقامهم الحق لخدمته، وقوم اختصهم بمحبته ». (**كُلًّا نمد، هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظوراً**) « الإسراء : 20 » قال شارحها: الحق تعالى له الاختيار التام والمشيئة النافذة (**لا يأسأل عما يفعل وهم يسألون**) « الأنبياء : 23 ».

ثم اعلم أن المحبة هي: (**نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة**) « الهمزة : 286 » قال سفيان الثوري في قوله تعالى: (**ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به**) « البقرة : 286 » هو الحب إذا أفرط بصاحبه، لأن المحب لا راحة له دون لقاء محبوبه. وقيل: إن الجنيد - رضي الله عنه - تكلم مع أصحابه في المحبة. فتكلم كل منهم بما أعطاه العلم والذوق فيها، وكان معهم شاب متكيء ينصت، فالتفت إليه الجنيد - رضي الله عنه - وقال: ما تقول في المحبة يا غلام؟ فتنفس فكانت نفسه مثل النار فأصابت ما حاذاه من المرعى، فتعجب القوم. فالمحبة لا يدريها إلا من جرعها، فهي أشد من نار الجحيم، ومن ورائها جنة النعيم إلى جنة القرب والمشاهدة. فلا بد من عطف المحبوب على حبيبه إن صدق في حبه.

سئل بعض المحبين، كيف رأيت المحبة؟ فقال: وقفت على ساحل بحر زاخر ماله من آخر، فقرب مني قارب (**من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً**)، فركبت موافقة له واتباعاً، فأجابت الروح من دعاها: (**بسم الله مجراها ومرساها**) «هود: 41» فلما توسطت اللجة توعرت سبل اللجة. فما زلت حتى جمعني في مجمع يجري (**يحبهم و يحبونه**)، فأنا بين البقاء والفناء حتى أصل ذلك الفناء.

قال ذو النون المصري رضي الله عنه: بينا أنا مار في شوارع مصر إذ رأيت جارية مسفرة بغير خمار. فقلت لها: يا جارية أما تستحين أن تمشي بغير خمار؟ فقالت: يا ذا النون وما يصنع الخمار بوجه قد علاه الاصفرار؟ فقال ذو النون: ومن أي شيء علاه الاصفرار؟ قالت: من محبته. فقلت: يا جارية عساك تناولت شيئا من شراب القوم؟ فقالت: أسكت يا بطال، شربت بكأس وده ونمت مسرورة، فأصبحت بحب مولاي مخمورة. فقلت: يا جارية عسى فائدة انتفع بها منك، أو وصية أرويها عنك! فقالت: يا ذا النون عليك بالسكوت حتى يتوهم أنك مبهوت، وارض من الله بالقوت تبنى لك بيت في الجنة من ياقوت. ثم أنشدت تقول:

تهتك ولا تخش في الحب عارا ☆ وإياك إياك تبدي استتارا
وبادر إلى الباب مع فتية ☆ هم في الظلام عيون سهارا
وإن خفت عند المسير الضلال ☆ فوجه حبيبك يهدي الحيارى

وعنه أيضاً أنه قال: سمعت برجل في اليمن قد سما على المحبين، وفاق على المجتهدين، وعرف بالعلم والحكمة. فخرجت حاجاً، فلما قضيت نسكي مضيت إليه لأسمع كلامه، وأنتفع بموعظته أنا وأناس معي يطلبون مثل ما أطلب، وكان معنا شاب عليه سمة

الصالحين وشعار المحبين، فخرج الشيخ إلينا فجلسنا إليه، فبدأ الشاب بالسلام والكلام فصافحه الشيخ وأقبل عليه. فقال له الشاب: يا سيدي قد جعلك الله طبيباً لأسقام القلوب، وبي جرح قد أعيا الأطباء، فإن رأيت أن تتلطف بي ببعض مراهمك فافعل. فقال الشيخ: عما بدا لك فاسأل. فقال: ما علامة الحب لله؟ قال: أن تنزل نفسك منزلة السقيم، ألا تراه يحتمي كل الطعام حذراً من السقام. فصاح الفتى صيحة ظننا روحه قد خرجت، فلما أفاق قال: يرحمك الله فما علامة المحبين؟ قال: إن درجة المحبين رفيعة. قال: صفها لي. فقال: إن المحبين لله تعالى نظروا إلى نور جلال الله فصارت أبدانهم روحانية، وعقولهم سماوية تسرح بين صفوف الملائكة بالعيان، وتشهد تلك الأمور باليقين، فعبدوه بمبلغ طاعتهم، لا طمعا في جنته ولا خوفا من ناره. قال: فشهق الفتى شهقة خرجت روحه. فجعل الشيخ يبكي ويقبله ويقول: هذا والله مصرع الخائفين، وهذه درجة المحبين. هذا حال من أحرق الشوق أكباده، وألم فؤاده وأضناه وأخذه، فهل يطيب عيشه هيهات! ولسلطان العاشقين في هذا المعنى:

وأين الصفا هيهات من عيش عاشق ☆ وجنة عدن بالمكاره حفت
ولي نفس حر لو بذلت لها على ☆ تسليك ما فوق المنى ما تسلت
ولو أبعدت بالصد والهجر والقلى ☆ وقطع الرجا عن خلتي ما تخلت
وعن مذهبي في الحب مالي مذهب ☆ وإن ملت يوما عنه فارقت ملتي

ومن « الروض الفائق » عن السري السقطي - رضي الله عنه - أنه قال: دخلت للمارستان لعلي أعتبر بمن فيه، فرأيت فيه جارية مصفرة اللون، ويدها إلى عنقها مغلولة، وهي تذكر الله متغولة، فسمعتها تنشد وتقول:

أعيـــذك أن تغـــل يـــدي ☆ بغير جنايـــة سبقـــت
تغـــل يـــدي إلى عنقي ☆ ومـــا خـــانت ولا سرقـــت
وبين جـــوانحي كبـــدي ☆ أحســـن بهـــا قـــد احترقت
وحقـــك يـــا منى قلبي ☆ يمينـــا برة صـــدقت
لأن قطعتهـــا قطعـــا ☆ غرامـــا فيك مـــا نطقـــت

قال السري: فقلت للقيم على المجانين ما هذه الجارية؟ قال: جارية اختل عقلها فحبسها مولاها. فلما سمعت الجارية كلامه تنهدت وأنشدت:

معاشر النـاس مـا جننت ولكن ☆ أنـــا سكرانـــة وقلبي صـــاح
قـد غللتم يـدي ولم آت ذنبـا ☆ غير هتكي في حبـه وافتضـاحي
أنـا مفتونـة بحب حبيـب ☆ لست أبغي عن بابـه من براح
فصـلاح الـذي رأيتم فسـادي ☆ وفسـادي الـذي رأيتم صـلاحي

قال السري: فلما سمعت كلامها أبكاني وأقلقني وأشجاني. فلما رأت دموعي تنحدر على وجهي قالت: يا سري هذا بكاؤك على صفته، فكيف لو عرفته حق معرفته! فقلت: يا لله العجب، في أي وقت عرفتني هذه الجارية ولم يكن بيني وبينها معرفة سابقة. فقالت: يا سري، ما جهلت مذ عرفت، ولا فترت مذ خدمت، ولا قطعت منذ وصلت، ولا حجبت منذ وقفت، وأهل الدرجات يعرف بعضهم بعضاً. ثم أنشدت تقول:

تحقق حق الحق في نـور بـاطني ☆ فأصبح قلبي للحبيـب مصافيـا
فدمت على وصف وصفت لسيدي ☆ وهل ينعت العبد الضعيف الموالـيا

فقلت: يا جارية أراك للمحبة تذكرين وللوجد تظهرين، فلمن

تحبين ؟ فقالت : لمن تعرف إلينا بآلائه ، وتحبب إلينا بنعمائه ، و جاد علينا بجزيل عطائه ، فهو قريب إلى القلوب ، مفرج الكروب ، حليم على من عصاه . قال فقلت لها : من حبسك في هذا المكان ؟ فقالت : حاسدون ومبغضون تعاونوا علي ورموني بالجنون وهم أحق بهذا الإسم مني . ثم أنشدت تقول :

يـا مـن رمى وحشتي فـأنسني ☆ بـالقرب مـن وصله فـأنعشني
يـا سـاكني لا خلوت مـن سكني ☆ دهري ويـا عـدتي على الزمـن
أوحشني ما فقـدت منـه فقـد ☆ عـاد بإحسانـه يقـربني
وعاد أيضـا وجـاد منعطفـا ☆ كذاك مذ كنت منه حين عودني
حسبي من الكون من شغفت به ☆ أصحبـه مؤنسـا ويصحبني
وكنـت في غفلة فنبهني ☆ وكنـت في رقـدة فـأيقظني

فقلت لها : ما الإسم ؟ فقالت : دع الإسم عنك ، يكفيك ما سمعت ويغنيك . فبينما نحن كذلك إذ أقبل سيدها فقال للموكل بها : أين تحفة ؟ فقال : قد دخل عندها الشيخ السري ، فكلمها بكلام أصغت إليه . فدخل سيدها فرأى السري عندها ، فعظمه وقبل يديه وقال : يا سيدي لقد رحمت ببركتك . فقال له السري : أي شيء أنكرته منها ؟ فقال : يا سيدي هذه جارية تضرب بالعود فأعجبتني ، فاشتريتها بجميع مالي وهو عشرون ألف درهم لفرط حسنها وحسن ضربها بالعود ، وأملت أن أبرح فيها مثل ثمنها ، فدخلت عليها في بعض الأيام والعود في حجرها وهي تغني وتنشد وتقول :

وحقـك لا نقضـت الدهرعهـدا ☆ ولا كـدرت بعـد الصَّفْـوِ ودا
ملأت جـوانحي والقلـب وجـداً ☆ فكيف أقـرأ وأسلـو وأهـدا
فيـا من ليس لي مـولى سـواه ☆ تراك رضيتني في النـاس عبـدا

فلما فرغت من غنائها بكت طويلا وضربت العود في الأرض فكسرته، وجعلت تهيم وتصيح وهي ذاهلة العقل، فاتهمتها بمحبة المخلوق، ثم كشفت عن حالها فلم أجد لذلك أثراً. فقال لها السرى: يا جارية أهكذا جرى؟ فأنشأت تقول:

خاطبني الحق من جناني ☆ فكان وعظي على لساني
قربني منه بعد بعد ☆ وخصني منه واصطفاني
أجبت لما دعيت طوعا ☆ ملبية للذي دعاني
وخفت مما جنيت قدما ☆ فوقع الحب بالأماني

قال السري لسيدها: أطلقها وعلي ثمنها، أنا أزن لك. فصاح سيدها وقال: وافقراد من أين لك ثمن هذه الجارية؟ فقلت: لا تعجل، كن في هذا المكان حتى أزن لك ثمنها. قال السري: فمضيت إلى منزلي وعيناي تذرفان بالدموع، وقلبي بسببها موجوع، وبت ليلتي أتضرع إلى الله عز وجل وأتوجه إليه وأتوكل في قضاء حاجتي عليه، فلما كان وقت السحر إذا بقارع يقرع الباب، فقلت من بالباب؟ فقال: حبيب من الأحباب جاء في سبب من الأسباب، من عند الملك الوهاب. ففتحت له الباب، فإذا هو شاب حسن الوجه والثياب ومعه خادمٌ وشمعة وخمس بدر على رأس حمال. فقلت: من أنت يرحمك الله؟ فقال: أنا أحمد بن المثنى قد أعطاني الجبار وما بخل علي بالعطاء، ورزقني من الأموال ما يعجز عن وصفه الرجال وحمله، فبينما أنا نائم إذ هتف بي هاتف من قبل الحق. فقال لي: يا أحمد هل لك في معاملتنا؟ فقلت: وقد زال النوم عني ومن أولى بذلك مني. فقال: أحمل إلى الشيخ السري خمس بدر يعطيها لمولى «تحفة» ليفك أسرها من الرق، وتحظى منا بالعتق، فلنا بها

عناية ولطف ورعاية. فحملت إليك المال وأطلعتك على الحال. قال السري: فسجدت شكراً لله عز وجل، فلما صلينا الصبح وأضاء النهار، أخذت بيد أحمد ومضينا إلى المارستان، وإذا بالموكل بها يلتفت يمينا وشمالا، فلما رآني قال: مرحبا بك أدخل إليها فإنها عليك لهفانة. ولها عند الله حرمة ومكانة، فإنه آتاني البارحة هاتف وقال لي:

إنهـــا مني ببـــال ☆ ليـت تخلـو مـن نـوال
قـــربت ثم تســـامت ☆ وعلـــت في كل حـــال

فانتبهت وحفظت ما قاله الهاتف وكررته حتى رأيتكم. قال فدخلنا عليها فسمعناها تنشد وتقول:

قـــد تصبرت إلى أن ☆ عيـــل في حبـــك صبري
كتمـــت الوجـــد ولكـــن ☆ ليـــس يخفى عنـــك أمري
ضـــاق مـــن قيـــدي وغلّي ☆ ومـــا نهـــاني فيك صـــدري
إن تكـــن عني راضيـــا ☆ لا أبـــالي طـــول دهري
أنـــت لي خير أنيـــس ☆ يـــا منى سـؤلي وذخـــري
مـــن ترى يعتـــق رقي ☆ ويفـــك اليـــوم أسري
غيرك اللهـــــم ربي ☆ أنـــت لي كاشـــف ضري

قال السري: فبينما هي تنشد إذ أقبل مولاها وهو يبكي وينتحب. فقلت له: لا بأس عليك، قد أتيناك بمالك الذي وزنته في الجارية وتربح خمسة آلاف درهم. فقال: لا والله لو أعطيتني الدنيا بما فيها لما قبلت منها شيئاً، هي حرة لوجه الله. فقلت: أخبرني ما الخبر؟ فقال: يا أستاذي أتاني آت البارحة في المنام فوبخني بالملام، وأغلظ علي في الكلام وقال: تهين ولية الله يا عدو الله.

فانتبهت مذعوراً مرعوبا، قد هانت علي الدنيا وخرجت عن جميع ما أملكه، وأنا هارب إلى ربي. ثم بكى وخرج على وجهه هائما.

قال السري: فالتفت إلى « إبن المثنى » فرأيته يبكي وينتحب، ودموعه تجري على وجنتيه، وقد ظهرت عليه آثار القبول. فقلت له: ما يبكيك؟ فقال: ما رضيني مولاي لما ندبني إليه، ولا وجدت لمالي قبولا بين يديه، أشهدك أني خرجت عنه وهو صدقة لوجه الله البديع ولجلاله الرفيع. فقلت: ما أعظم بركة « تحفة » على الجميع.

ثم قامت «تحفة» فنزعت ما عليها ولبست جبة صوف وخماراً من شعر وخرجت هائمة على وجهها، فخرجنا معها وهي تنشد وتقول:

هربت منه إليه ☆ بكيت منه عليه
وحقه وهو مولًى ☆ لا زلت بين يديه
حتى أنال وأحظى ☆ ما أرتجيه لديه

فما زلنا نتبعها حتى خرجنا إلى ظاهر المدينة وهي تنشد وتقول:

يا سرور السرور أنت سروري ☆ يا حياة النفوس أنت حبوري
أنت ناري وجنتي ونعيمي ☆ وأنيسي وأنت نور النور
كم ترى يصبر المحب على البعـ ☆ ـد وكم يلبث الهوى في الصدور

قال السري: ثم مضت حتى غابت عنا، ثم أتى مولاها وصحبني، وكذلك ابن المثنى بُرهةً من الزمان إلى أن توفي سيدها وقضى نحبه، وبقيت أنا وابن المثنى فعزمنا على الحج إلى بيت الله الحرام. فبينما نحن نطوف بالكعبة وإذا بصوت مقروح من كبد مجروح، وهو ينشد ويقول:

قد تهتكت بحبك ☆ كيف لي منك بقربك

فترفـــــق بفـــــؤاد ☆ يشتكي شـــدة بعـــدك
خبـــت يـــا نفـــس إذا آ ☆ خـــذك الله بيـــدك
فسلي العفـــو جهـــارا ☆ والرضـــا مـــن عنـــد ربك

قال السري: فاتبعت الصوت فإذا امرأة كالخيال ذاهلة العقل والبال، فلما رأتني قالت: السلام عليك يا سري. فقلت: وعليك السلام، من أنت؟ فقالت: لا إله إلا الله، وقع التناكر بعد المعرفة، أنت إلى الآن محجوب وقلبك غير مسلوب، ثم قالت: أنا تحفة. فقلت لها: ما الذي أفادك الحق بعد انفرادك عن الخلق؟ فقالت:

أفـــــادني كل المنى ☆ وخـــص قلبي بـــالغنى
وقـــد أزال سيـــدي ☆ عن بـــاطني ثقـــل العنـــا
إن لم يـــداركني بمـــا ☆ أرجـــوه وإلا مـــن أنـــا

فلما فرغت من إنشادها بكت وانتحبت، وهاجت واضطربت، ثم رفعت رأسها وقالت: سيدي ومولاي! فاز أهل التقى ونجا من اتقى، وخاب من حظه الطرد والشقا. فأسألك يا سيدي إلا ما قربت الوصل واللقا، فقد تولهت عليك فخذني إليك فلا حاجة لي في البقا. ثم صرخت ووقعت على الأرض، فحركناها فإذا هي ميتة، فنظر إليها أحمد ابن المثنى فطار قلبه وحار لبه، ثم بكى وانتحب، واهتز واضطرب، وأصعد الزفرات وأظهر الحسرات، ثم صرخ ووقع على الأرض فحركته فإذا هو ميت. قال السري: فجهزتهما وصليت عليهما ودفنتهما ورجعت، وقد عجبت من حالهما وقرب آجالهما، رحمة الله عليهما. إنتهى من «الروض الفائق».

وما أوردنا هذه الحكاية مع طولها إلا لوجود مناسبتها لهذا الفصل، والكلام على المحبة طويل عريض لا غاية له.

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ هَيَّمَهُ أَثَرُ النَّظَرِ، وَأَقْلَقَهُ سَمَاعُ الخَبَرِ، تَقَطَّعَ فِي مَفَاوِزِ المُخَاطَرَاتِ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى الآفَاتِ، يَقُولُ فِي هَيْمَانِهِ: كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى وَصْلٍ أَعِيشُ بِهِ

أي من هيمه أثر النظر وصح عنده الخبر، وطرق سمعه طريق القبول، ووعده محبوبه بالوصول، هام في مهامه الفلوات وخاطر بنفسه في مهالك الآفات. يقول في هيامه: لا أبالي في هيامي أو هيماني بما يلقاني، كيف السبيل إلى وصول أعيش به. إذ ليس له دون ذلك وطر. ومن شهد المنازل لا يرضى بالمزابل. قال بعضهم: رأيت جارية في البادية وعليها أثر القلق. فقلت لها: رفقا بنفسك يا أمة الله. فقالت: هو هو. قلت: إلى أين تريدين؟ فقالت: هو هو. فقلت لها: من تعني بقولك هو، أ الله تريدين؟ فزهقت زهقة فاضت منها نفسها، فتركتها ودخلت المدينة لنجمع بعض الدراهم لكي أستعين على كفنها، فلم يتيسر لي ذلك، فرجعت لدفنها على ما هي عليه فلم أجدها، إلا أني وجدت رائحة تفوق المسك، فبقيت منتظراً وإذا بهاتف يقول: أقوام اشتاقوا إلينا في حياتهم فرفعناهم إلينا بعد مماتهم. فمن أقلقه أثر النظر وسماع الخبر خاطر بنفسه ولم يبال بجسده.

قيل: إن الحلاج - رضي الله عنه - لما قطعت يده اليمنى ثم اليسرى أنشأ يقول:

لم أسلم النفس للأسقام تتلفها ☆ إلا لعلمي بأن الوصل يحييها
نفس المحب على الآلام صابرة ☆ لعل مسقمها يوما يداويها

ولما قدموه للجذع ليصلب أنشأ يقول:

لبيك يا عالم سري ونجواي ☆ لبيك لبيك يا قصدي ومعناي
أدعوك بل أنت تدعوني إليك فهل ☆ ناجيت إياك أم ناجيت إياي
حبي لمولاي أضناني وأسقمني ☆ فكيف أشكو لمولاي بمولاي
يا ويح روحي من روحي ويا أسفي ☆ علي مني فإني أصل بلواي

فهذا حال من أقلقته الأشواق، يكابد في لقاء المحبوب ما يكابده، وكل ذلك أحلى من الشهد.

قال إبراهيم الخواص رحمة الله عليه: حججت سنة من السّنين وكانت سنة كثيرة الحر والسموم، فلما كان ذات يوم وقد توسطنا أرض الحجاز انقطعت عن الحاج، وغفوت قليلا فلم أشعر إلا وأنا وحدي في البرية، فلاح لي شخص فأسرعت إليه فلحقته وإذا هو غلام لا نبات بعارضيه، وجهه كالقمر المنير، أو الشمس الضاحية، وعليه أثر الدلال والترفُّه، فقلت له: السلام عليك. فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا إبراهيم. فقلت له: من أنبأك بإسمي ولم تسبق بيني وبينك معرفة؟ فقال: يا إبراهيم ما جهلت منذ عرفت ولا قطعت منذ وصلت. فقلت له: ما الذي أوقعك في هذه البرية في مثل هذه السنة الكثيرة الحر والسموم؟ فقال: يا إبراهيم ما أنست بسواه ولا وافيت غيره، وأنا منقطع إليه بالكلية مقر له بالعبودية. فقلت له: من أين المأكول والمشروب؟ قال: تكفل لي به المحبوب، ثم أجابني ودموعه تنحدر على خديه كاللؤلؤ الرطب وأنشأ يقول:

من ذا يخوفني بالبر أقطعه ☆ إلى المحب وقد قدمت إيمانا
الحب أقلقني والشوق أزعجني ☆ ولا يخاف محب الله إنسانا

فهل لصغران سني اليوم تحقرني ☆ دع عنك عذلك في قد كان ما كانا

ولو كلف المحبوب محبوبه بما زاد على طوقه لتحمله بدون مشاق وبدون أن يتوقف. قال ابن الفارض رضي الله عنه:

لو قال تيهاً قف على جمر الغضا ☆ لوقفت ممتثلا ولم أتوقف
أو كان من يرضى بخدي موطئاً ☆ لوضعته أرضا ولم أستنكف

قيل: إن داود - عليه السلام - قال في مناجاته: (**إلاهي لو كان بيني وبينك واد من نار لقطعته اشتياقا إليك**).

ولنا في ذلك:

ولو أن بين المحبين مسافة ☆ لقطعتها عزما ولو بمشقتي
ولو كان بيني وبينكم حَائلٌ ☆ لمزقت مانع الوصول بهمتي
ولو صح ذا الغرام بالفعل هنته ☆ ولا أبالي بما فيه من حسناتِ
وهبت ما عندي في الجميع متبرعا ☆ في ديني ودنياي من فرض وسنة
وقلت قل ذا المهر في جانب اللقا ☆ فيا حبذا التبذير بين الأحبة

(**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**) « التوبة: 111 » فإن كان هذا مهر الجنة فكيف بمن يطلب الحق، فحقه أن يخاطر بنفسه وأن يرمي بها في مواطن الهلاك ولو تقطعت أربا أربا في مطلوبه ولا يبالي.

ألا ترى لو أن امرأة فقدت ولدها، وقيل لها: إنه وقع في نهر أو في بحر، لرمت بنفسها وقدمت الهلاك بدون أن تلاحظ ما وراء ذلك. حبك للشيء يعمي ويصم.

كان إبراهيم - عليه السلام - أمر بذبح إبنه، هل توقف في ذلك؟ بل نهض نهوضا يعجز عنه بقية البشر، والحامل له على ذلك

ما أصابه من الشوق، زيادة على الامتثال، حتى اقتحم عملاً ضج منه الثقلان (**إن هذا لهو البلاء المبين**) « الصافات : 106 » فعل الحق عز وجل به ذلك لكي يباهي به الثقلين، ويحتج به على سائر المخلوقين.

رىء مجنون ليلى في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وجعلني حجة على المحبين. نال ما ذكر بسبب ما أصابه من التهتك وما لقيه من الشغف حتى قال في طلب محبوبه:

فإن طلبوا رجلي مشيت على العصاوإن طلبوا الأخرى حبست مكانيا

فإن كان هذا عشق المظاهر لبعضها، فكيف بتشوق الفروع لأصولها والأطيار لأوكارها، بل وما هو أبلغ من ذلك.

ثم قال رضي الله عنه:

الخَالِيُ مِنَ الأُنْسِ وَالشَّوْقِ فَاقِدٌ لِلْمَحَبَّةِ وَلِأَرْوَاحِ الرِّعَايَةِ وَأَشْبَاحِ الوِقَايَةِ

الخالي من وجود الأنس والشوق لا يعد من المتوجهين، والمراد بالأنس، الأنس بالله، وفاقدهما على اختلاف طبقاتهما لفقده نعت المبتدئين وهو الشوق، ونعت المنتهين وهو الأنس بالله، لا يعد من المتوجهين إلى الله. وعليه فهو خال وفاقد للمحبة، بحيث لم تنبت بفؤاده. إذ لو كان له شيء منها لما كان خاليا من وجود الأنس والشوق، ولفقدانه المحبة فلا محالة يكون فاقدا لأرواح الرعاية وأشباح الوقاية. وقد تقدم الكلام على رعاية الأرواح ووقاية الأشباح، لأن العارفين محفوظون من الخطرات والغفلات بالرعاية. وأي رعاية

حصلت له حيث كان خاليا من وجود الأنس؟ ولأن أشباحهم محفوظة من الوقوع في المكروه أو المحرم. وأي رعاية حصلت لفاقد الشوق؟

وحاصل الأمر إن وقاية الأشباح هي حفظها من الوقوع في المخالفة، ورعاية الأرواح هي حفظها من الجولان في عالم الأغيار، والغفلة عن الحضور مع الحق عز وجل. وأساس هذا كله وجود المحبة، لأنها إذا وجدت فلا محالة ينشأ عنها كل من الشوق والأنس، كما قلنا:

ومن ليس ذا شوق يقوم بضعفه ☆ وليس من ذوي الأنس تركه أنفع
ومن ليس ذا حب يحتاج لبعده ☆ لأنه بطال في الوصل لا يطمع

وحاصل الأمر إن المحبة أصل عظيم في الطريق، فمن حصل عليها حصل على الخير لا محالة، لأنها تنوب عن بقية الخصال ولا ينوب عنها غيرها.

فهات لي حبا أفوز به ☆ وخذ ما شئت دون المحبة

ثم قال رضي الله عنه:

فَقْدُ الأَسَفِ وَالبُكَاءِ فِي مَقَامِ السُّلُوكِ عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ الخِذْلَانِ

السالك في طريق الله مجروح الفؤاد باكي الأثماد عما فاته في طلب الحق وما ضيعه في الأيام الخالية. هذا إن تحقق المقصود لديه وانتبه من نومه. وإن فقد ذلك، كان فقده علامة من علامات الخذلان إذا لم يرجع عن غيه وينهض لربه، فيكون سائراً باللسان

معرضا بالجنان، إذ من لم تؤلمه نار الحجاب فهو ميت القلب، إذْ لو علم ما هو عليه من البعد وما فاته من الاستعداد، لطار طيران الظمآن إلى الماء، ولكن مثله مثل الحمقاء عند موت إبنها يكثر ضحكها ويقل بكاؤها، فالعين التي لم تبك على عدم رؤية المحبوب، فالعمى أولى بها. وكيف لا يجري الدمع من عينيه مع قطيعته، وقد كان من تقدم يبكي حتى تجف دموعه. وقد قيل: إن فتح الموصلي - رضى الله عنه- كان يبكى الدموع ثم يبكي الدم، فلما مات رؤي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفنى بين يديه، وقال: يا فتح هذا البكاء لماذا؟ قلت: يا رب على تجافي عن واجب حقك. قال: فلم بكيت الدم؟ قلت: ياربي خوفا على دموعي أن لا تصح لي. قال: يا فتح ما أردت بذلك كله ؟ قلت: يا سيدي أردت بذلك وجهك الكريم، فأرنيه واصنع بي ما شئت. فقال: وعزتي وجلالي لقد صعد إلي حافظاك منذ أربعين سنة بصحيفتك، وليس فيها خطيئة واحدة، فلألبسنك لباس التكريم، ولأمتعنك بالنظر إلى وجهي الكريم.

كان شقيق البلخي - رضي الله عنه - يعاتب نفسه وينصحها ويقول: يا شقيق لا تعصي الله إلا على حسب ما تطيق من عذابه، واعمل لآخرتك على قدر حوائجك، وطالب بالرزق على قدر مقامك في الدنيا، واعمل لدار لا نفاد لها، فسوف ترى إذا انكشف الغبار.

سهر العيون لغير وجهك باطل ☆ وبكاؤهن لغير فقدك ضائع

قال ابن عطاء الله في مناجاته: « لقد خاب من رضي دونك بدلا، ولقد خسر من بغى عنك متحولا، ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك ».

ولبغض المحبين:

ركبت بحراً من الدموع ☆ سفينه جسمي النحيل
فمزقت ريحه قلوعي ☆ مذ عصفت ساعة الرحيل

وقال أيضا:

والماء إن قل في المناهل ☆ أو رمت عند النزول نار
فالتمس الماء من دموعي ☆ فكم لها في الفلا سبيل
واقتبس النار من ضلوعي ☆ ففي الحشا حشوها شعيل

وقال آخر:

صبرت قلبي عنكم فأجابني ☆ لا صبر لي لا صبر لي كيف أصبر
لا صبر لي حتى أراكم بناظري ☆ وعلى محبتكم أموت وأحشر

وحزن العارفين وبكاؤهم في الطريق وأسفهم على ما فات معلوم بالضرورة، والقلب الذي لا يتأسف على ما فات، ولا يستعد لما هو آت ولا يتشوف لأسرار الذات وأنوار الصفات، فحياته ليست بحياة، فيعد من قلوب البهائم، (**لهم قلوب لا يعقلون بها**).

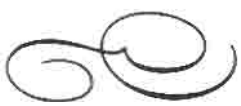

ثم قال رضي الله عنه:

لَيْسَ مَنْ أَلْبَسَ ذُلَّ العَجْزِ كَمَنْ أَلْبَسَ عِزَّ الإِفْتِقَارِ

شتان ما بينهما، إذ ليس من لبس عز الإفتقار إلى الله، ونهض كل النهوض إليه كمن لبس ذل العجز عن طلبه ورضي بالقطيعة وكان مع الخوالف. فبأي شيء يستبدل الحق إن فقده، فليس له بدل مع أن لكل شيء بدلا. قيل في هذا المعنى:

لكل شيء إن فقـــدت عـــوض ☆ وليس لله إن فقدت من عوض

الحق تبارك وتعالى كل من نهض إليه وجده فوفاه حسابه. فما منعنا عن الوصول إليه إلا عدم النهوض إليه. فمن صح له الإضطرار لا يكون له مع غير الله قرار.

ثم قال رضي الله عنه:

المَحَبَّةُ الأُنْسُ بِاللَّهِ وَالشَّوْقُ إِلَيْهِ

المحبة على قسمين: فهي لأهل البداية شوق لله وطلب الوصول إليه. وعند أهل النهاية الحضور معه والأنس به، فتكون على هذا شوقا واشتياقا. فالمريد في شوق إلى لقاء المحبوب، ومتعوب يتقلب على جمر المماطلة، لن يصفو له الوقت، وكيف يصفو له الزمان وهو بين شوق وامتحان.

وأين الصفا هيهات من عيش عاشق ☆ وجنـــة عـــدن بـــالمكاره حفت
ولي نفس حر لو بـذلت لهـا على ☆ تسليك مـا فـوق المنى مـا تسلت

ولو أبعدت بالصد والهجر والقلى ☆ وقطع الرجا عن خلقي ما تخلت
وعن مذهبي في الحب مالي مذهب ☆ وإن ملت يوما عنه فارقت ملتي

هذه حالة أهل القسم الأول. وأما الواصلون فإنهم يكونون في اشتياق، لأن الشوق ينتهي بملاقاة الحبيب، وأما الاشتياق فيزداد صاحبه بعد الوصول إليه لهيبًا. فالأول متعذب في حبه، والثاني مع وجود اللهيب يتنعم بقربه. ولبعضهم:

الحب سكر خماره التلف ☆ يحسن فيه الذبول والدنف
والحب كالموت يفني كل ذي شغف ☆ ومن تطعمه أَوْدَى به التلف
في الحب مات الأولى صفت محبتهم ☆ ولو لم يحبوا لما ماتوا وما تلفوا

وقال غيرهم

إن البلد وما فيها من الشجر ☆ لو بالهوى عطشت لم ترو بالمطر
لو ذاقت الأرض حب الله لاشتغلت ☆ أشجارها بالهوى فيها عن الثمر
وعاد أغصانها جردا بلا ورق ☆ من حر نار الهوى يرمين بالشرر
ليس الحديد ولا صم الجبال إذا ☆ أقوى على الحب والبلوى من البشر

وقال غيره:

وقفت على باب الحبيب مسائلا ☆ فتبدا جوابي قبل أن أتكلما
وكيف جوابي أنت لا أنت ما ترى ☆ قمت بوجود الوجد حتى تَهَدَّمَا
وراع وداد من استطعت فإنني ☆ سأجعل ودي في المعاد معظما
وكشف حجاب العزّ عني لأنني ☆ أحب نداء العارفين تكرما
شفاؤك عندي غير أني أحب أن ☆ أراك على عرش المحبة مسلما

المحب معذب بحبه لا يلتذ له عيش ولا يخلو من طيش، مؤلم الفؤاد باكي الأثماد، يتقلب على جمر المماطلة، أخذه الحب أسيرا،

لا شفيع له ولا ناصرا. وفي ذلك قال بعضهم - رحمة الله عليه - وهو « أبو مدين » التلمساني:

تذللت في البلدان حين سبيتني ☆ وبت بأوجاع الهوى أتقلب
فلو كان لي قلبان عشت بواحد ☆ وأترك قلبا في هواك يعذب
ولكن لي قلبا تملكه الهوى ☆ فلا العيش يهنى لي ولا الموت أقرب
كعصفورة في كف طفل يضمها ☆ تذوق سياق الموت والطفل يلعبُ
فلا الطفل ذو عقل يحن لما بها ☆ ولا الطير ذو ريش يطير فيذهب
تسميت بالمجنون من ألم الهوى ☆ وصارت بي الأمثال في الحي تضرب
فيا معشر العشاق موتوا صبابة ☆ كما مات بالهجران قيس معذب

(كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك) « الإسراء : 20 ».

المحبة نار مهما وقعت على شيء في الطريق إلا وقطعته وأحرقته وهي (نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة) « الهمزة : 7 » فمن وجدها وجد مطلوبه ولو كان من وراء الثريا، لأنها تحمله وتقطع به وتأخذه وتنهض به. ولهذا يقال: صاحب النية سيار، وصاحب المحبة طيار. قال شيخ مشايخ هذه الطائفة سيدي عبد الرحمان المجذوب رحمة الله عليه:

أهل الهوى صدوا مروا ☆ وأهل المحبة فاقوا
لو خرقوا السموات السبع ☆ رفعوا الحجب ودخلوا
أهل المحبة قالوا لي ☆ إذا أبلاك الله بها
مقامها عال غال ☆ أهل الكتب حاروا فيها
لا محبة إلا بوصول ☆ ولا وصول إلا غال
ولا شراب إلا مختوم ☆ ولا مقام إلا عال

والكلام في المحبة طويل الذيل لا يساعد الإفصاح عنه في هذا المجموع القليل.

وأما صاحب الأنس والاشتياق فهو معذب إلا أنه يتلذذ بذلك التعذيب، فهو عنده أطيب من كل طيب. تراه يتأوه كأنه منقطع باكي العين، كأنه في بين، حزين الفؤاد كأنه في بعاد في قربة وهو غائب عن القرب. ومع شربه كأنه غائب عن الشرب، إذا قلت له من تهوى؟ يقول من شدة قربه: «أنا من أهوى ومن أهوى أنا».

روحه روحي وروحي روحه ☆ نحن روحان حللنا بدنا

أختلط له المحب بالمحبوب، حتى صار لا يدري نفسه هل هو حبيب أو محبوب، أم طالب أو مطلوب، حيره الغرام وأسكره المدام. وقد قال من حقق هذا المقام وهو ابن الفارض رضي الله عنه:

أسائلها عني إذا ما لقيتها ☆ ومن حيث أهدت لي هداي أضلت
وأطلبها مني وعندي لم تزل ☆ عجبت لها كيف عَلَيَّ استجنَّتِ
وما زلت في نفسي بها متردداً ☆ لنشوة حسي واغاسن خمرتي

قلت في هذا المعنى:

فياليت شعري ما الحبيب الذي نرى ☆ فهل طلبت غيري أم نفسي مطلوبتي
فإن كنت ذاك أنا بل حبي أردته ☆ فمطلوبي من نفسي وإليَّ غايتي
وهل هذا ممكن في نفسي كائن ☆ مطلوب وطالب في نفس واحدة
فهذا عشق المعشوق في العشق حيرة ☆ وكان حب الحبيب يرى من زلة
فكيف يكون الحب إن كان واحدا ☆ ومتى يكون القرب في الفرد المثبت

وفي مثل هذا المعنى ما رُوي عن الشيخ الشبلي رضي الله عنه أنه قال: بينما أنا سائح في بعض الجبال إذ رأيت ريحانة العابدة وهي تنشد هذا البيت:

أحضرتني فيـــــك لكـــــن ☆ غيبتنـــــــــي في التجـلي

قال: فنظرت يمينا وشمالا ثم قصدتها وسلمت عليها فردت علي السلام. فقلت: يا ريحانة، فقالت: لبيك يا شبلي، فقلت: على من تفتشين؟ فقالت: على ريحانة! فقلت لها: ألست ريحانة؟ قالت: بلى! ولكن يا شبلي منذ قرب ودنا وقعت في الفنا، وصرت لا أعرف أين أنا، فغبت عن وجودي وضعت مني، وصرت أسائل الركبان عني فلا أجد من يخبرني عني. فقلت: عودي يجمع عليك، فقد رفعت الأعلام إليك. فقالت: يا شبلي لقد سألت عناصري فلم أجد فيهـــم أحدا ناصري، وسألت الحواس فإذا هم سكارى من غير كأس، وسألت فهمي فدلني على وهمي، وسألت سري فقال: لا أدري، وسألت فؤادي فما بلغني مرادي، وسألت قلبي فاستغرق وقال حسبي لا أتكلم ولا أبدي، ثم قالت: يا شبلي من هيبة ربي لم يبق حي إلا وسألته أن يوصلني إلي ويدلني علي، فعجز الكل عن لطفي وتركوا حظي، فإن كنت يا شبلي تعرف مكاني فقد دعاني ترجماني. فقلت لها: يا ريحانة قرارة مكانك عندي رحمك رحمانك، فقال: فصرخت صرخة واتبعتها بزفرة فحركتها فإذا هي ميتة، فأسندتها إلى صخرة وصعدت في فلاة من الأرض لعلي أرى من يعينني على تجهيزها فلم أرى أحداً فعدت إلى الأثر فلم أجد لها خبراً، لكن وجدت نوراً يشعشع وبروقاً تلمع، فقلت: يا ليت شعري ما فعل بهذه الأمة. فنوديت: يا شبلي من أخذناه منه في حال حياته غيبناه عن الأعين في مماته. قال الشبلي: فلما كانت الليلة الآتية رأيتها في المنام فقلت: يا ريحانة ما فعل الله بك؟ فقالت: يا بطال، زال العنا ونلنا المنى، وتحققنا آمالنا وبلغنا قصدنا وآمالنا وإن كنت تريد العز الكلي فمت مثلي.

وكل ذلك من نتائج الاشتياق. وهذا وإن العارفين مختلفون في أحوالهم، فمنهم غائب في المحبة تراه كالجبل الراسخ لا تهزهزه الرياح، ولا تخمره أقداح، كلما ازداد سكراً ازداد صحواً. قال بعضهم:

شربت الحب كأسا بعد كأس ☆ ما نفد الشراب وما رويت

وقال بعضهم:

فما ازددت شربا إلا وازددت صحوا ☆ فوا عجبي ما هذا الشراب
كأنه لم يصل إلى فؤادي ☆ وأنا عنه في حجاب
ولو كان قَدْرَ مَاءِ البحر طرا ☆ لما اكتسبت به اضطرابُ

ومنهم من تراه كأنه يسمع خطابا من وراء حجاب مع أنه في وصول واقتراب.

ولهذا قال شيخ مشايخ هذه الطائفة «أبو الحسن الشاذلي» - رضي الله عنه - ونفعنا بأسراره آمين:

ومنا من يكون مجنونا فيها ☆ سليب العقل يرمى بالحجارة
ومنا من يكون عريانا فيها ☆ غائبا عن البرودة والحرارة
ومنا من يهيم على سماع ☆ ببندير وعود ونقر طارا
ومنا من يكون خفيا فيها ☆ في خفاء لا يزور ولا يزارا

وقد بَيَّنَ أنواع الشوق والاشتياق بقوله: «ومنا... الخ ما قال».

وقد قيل: إن العشق فنون، والجنون فَنٌّ من فنونه. قال ﷺ: (**أذكروا الله حتى يقولوا مجنون**). وقد قلت في هذا المعنى:

إني بين من لا يدري ما الهوى ☆ لو أصابني قالوا جن البلي
إن جننت بحب الذي نهوى ☆ لا أبرأ الله جسمي من الضني

ثم قال رضي الله عنه:

إِيَّاكَ أَنْ تَمِيلَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ فَيَسْلُبَكَ اللَّهُ لَذَّةَ مُنَاجَاتِهِ

الميلان هو الركون إلى الشيء ولو قليلا، ولكن الحق تبارك وتعالى يثبت العارف ويحفظه من الركون إلى غيره، كما ثبت محبوبه الأول ﷺ. **(ولولا أن ثَبَّتْنَاكَ لقد كِدْتَّ تركن إليهم شيئا قليلا)** « الإسراء: 84 ».

وقد تقدم أن الحق تبارك وتعالى أشد غيرة على قلب العارف من أن يتركه لغيره، وكيف يكون ذلك وقد خلقه لأجله فلا يرضاه أن يميل لغيره، وبمجرد وقوع الميلان لذلك القلب أو الركون، يسلبه الحق عز وجل حلاوة المناجاة، وإن دام على تلك الحالة يسلبه المشاهدة نفسها. وكل ذلك يقع للعارف قبل التمكن، وأما بعده فلا يطرأ عليه في الغالب. لقول ابن الفارض رضي الله عنه:

وإن خطرت لي في سواك إرادة ☆ على خاطري سهواً قضيت بردتي

فانظر - بارك الله فيك - إلى هذا المقام الشريف واجهد نفسك لكي يكون لك منه نصيب **(ولا تنس نصيبك من الدنيا)** « القصص: 77 » أي فلا تنس نصيبك من هذا الشأن ما دمت في قيد الحياة، وإن كان لك نصيب منه فاحذر أن تميل إلى غيره. وقد قلت في هذا المعنى:

أذكره ذكراً جميل ☆ واحذر نفسك تميل
فما سواه تعطيل ☆ عن الوصل مانع

وبمجرد ما يقع أدنى ميلان، فإنه يسلبك حلاوة المناجاة. فحافظ

عليها أيها المريد فإنها أشرف المقامات، وكيف لا وهي محادثة الحبيب مع الحبيب في خلوة القرب والمشاهدة، وفي ذلك قلت:

حبيب ومحبوب وساعة خلوة ☆ طالب ومطلوب والغير ممنوع

هكذا إذا زالت الأستار، ولاحت الأنوار، وباحت الأسرار، وحدا حادي الأرواح، إن السر قد باح. هذا الحبيب قد خلا بحبيبه فلا سبيل لنا في الوصول إليه، فيا له من خطاب ويا له من جواب. لا أحرمنا الله من سماعه.

ثم قال رضي الله عنه:

مَنْ رُزِقَ حَلاَوَةَ المُنَاجَاةِ زَالَ عَنْهُ النَّوْمُ

المنام ملازم للهيكل الجسماني لا محالة، ولا يمكن زواله البتة. نعم يمكن ترك الغالب منه بوجود الرياضة خصوصاً إذا ذاق المريد حلاوة المناجاة. وكلام المصنف عائد على الروح لاستحالة نومها كاستحالة عدمها في الآتي، فقد تنزه عن النوم والغفلة في الغالب خصوصاً بعد تصفيتها وخروجها من الكثافة إلى عالم اللطافة، وخصوصاً في الحضرة الأحدية وتجريدها من رق الآثار إلى عالم الأسرار، فلا جرم تسمع خطاب الحق كما قيل:

روحي ترقـــت للمعـــالي ☆ ناجاهـــا الحـــق سمعت نـــداه
بلا صـــوت ولا كيـــف قلبـــت ☆ حبيبـــا قـــد تجلى بسنـــاه

فلهذا يزول عنها النوم لافتراقها مع هيكلها، ومع وجوده واستقرارها فيه تكون ملازمة له من وجهة، ومفارقة له من وجوه، ويكون نومها

بمعنى الكمون، كما يكون لها كمون في اليقظة أيضا عن عالمها العلوي باسترجاع شعاعها إلى البدن، وهذا يعد لها مناما مع يقظتها. وقد يكون لها كمون أيضا في المنام، وهو كناية عن استرجاع شعاعها إلى عالم البطون، أو تقول إلى غيب الغيب، فتغفل عن الجسد وعن حركاته وعن جميع الشؤون الملازمة له، لما يغمرها من مقتضى البطون فتكون كائنة بائنة، أي كائنة في البدن من حيث وجودها فيه، بائنة من حيث عدم التفاتها إليه.

ثم أعلم أن الروح إذا جالت في الحضرة الواحدية المعبر عنها بظهور الأسماء والصفات، لم تغفل عن البدن بل تراها تدبر في حركاته وسكانته كأنها لم تفارقه مع أنها في حالة غير معقولة في ظاهر الجسم، وتكون تذوق حلاوة المناجاة، إلا أنها تسمع كلام الحق من وراء حجاب الخلق، أي بحروف وأصوات لكونها لم تفارق الهيكل الجسماني حتى تسمع الكلام المنزه عن الحروف والأصوات، ولا يمكن أن يسمع إلا ما هو موافق لشكله، ومن هنا كان القرآن العظيم بحروف وأصوات، مع أن معناه منزه عن ذلك. وفي هذا المقام يكون العارف يسمع كلام الحق يلوح على ألسنة الخلق، ولذا قال بعضهم: « ألسنة الخلق أقلام الحق » لأن الله تبارك وتعالى لا يكلم عبده إلا وحيا أو من وراء حجاب الخلق، أي على ألسنتهم. ولا فرق بأن يسمع العارف كلام الحق على لسان ملك أو على لسان بشر، فكل من خلق الله. وأما إذا كان وحيا يكون للروح حالة تجردها، أي خروجها عن الهيكل رأسا في الحضرة الأحدية، فتسمع حينئذ خطابا من حضرة التنزيه بلا حرف ولا صوت، (**ليس كمثله شيء**) « الشورى: 11 » ولا مماثل لشي، وهو المعبر عنه بالمناجاة. ويكون

استماعها لهذا الخطاب بجميعها لفقد الجوارح الملازمة للبدن وغيبتها عنها، ولو لم تفارق لم تسمع هذا الخطاب المنزه عن الجهات، لأن الروح في نفسها كلها سمع وبصر، أي كلها إدراك، لأنها اللطيفة الإلاهية، والمانع لها عن ذلك الهيكل الترابي والحكمة تساعده. قال تعالى: (**والجبال أرساها**) « النازعات: 2 » حتى صار لا يظهر منها إلا القدر القليل المحتاج إليه بواسطة الحواس الخمس، أي أحداق وصماخ وما أشبه ذلك، وإذا رجعت لعادتها يصح لها أن تسمع ذلك الخطاب الرفيع الذي سبق لها في عالمها الأصلي يوم قال لها ولأجناسها على اختلاف طبقاتهم (**ألست بربكم قالوا بلى**) « الأعراف: 172 » فكان استماعها حينئذ لذلك الخطاب بكلها. وإذا صارت حينئذ كما كانت عليه ورجعت لعادتها وتجردت من شكلها، فلا جرم تسمع ما سمعته في القديم خطابا وأي خطاب من (**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**) « الشورى: 11 ». وقد قيل في هذا المعنى:

كلك سمع إذا ناجاك ☆ حبيب قد تجلى بسناه

وقيل أيضا:

وإن حدثتني فكلي مسامع ☆ وإن حدثتها فكلي ألسن تتلوا

وحاصل الأمر أن العارف إذا وصل إلى هذا المقام تصير جوارحه وصفاته تنوب عن بعضها بعضا، وذلك خارج عن دائرة العقل، وهو من مدهشات الأمور. قال سلطان العاشقين:

فعيني ناجت واللسان مشاهد ☆ وينطق مني السمع واليد أصغت
وسمعي عين تجتلي كل ما بدا ☆ وعيني سمع إن شدا القوم تنصت

ومني عن أيـد لسـاني يـد كما ☆ يدي لي لسان في خطابي وخطبتي
كذاك يدي عين ترى كل ما بدا ☆ وعيني يد مبسوطة عند بسطتي
وسمعي لسان في مخاطبتي كذا ☆ لساني في إصغائه سمع منصت
وللشم أحكام اطراد القياس في اتـ ☆ ـحاد صفاتي أو بعكس القضية
وما فيَّ عضو خص من دون غيره ☆ بتعيين وصف مثل عين البصيرة

وعند وصول العارف لهذا المقام تصير الروح مالكة للشبح أي غير محصورة فيه، فيمكن لها استماع خطاب الحق، وإذا سمعته فلا يحلو لها خطاب بعده. ولا جرم يحرم عليها المنام، لا أحرمنا الله من هذا الخطاب، وألهمنا الجواب، وهو على ما يشاء قدير.

ثم قال رضي الله عنه:

جَعَلَ اللَّهُ قُلُوبَ أَهْلِ الدُّنْيَا مَحَلاًّ لِلْغَفْلَةِ وَالوَسْوَاسِ، وَجَعَلَ قُلُوبَ العَارِفِينَ مَحَلاًّ لِلذِّكْرِ وَالإِسْتِئْنَاسِ

تقدم أن القلب له وجهة واحدة، وإذا توجه لشيء أدبر عن شيء. فقلوب أهل الدنيا جعلت للغفلة والوسواس، كما جعلت قلوب العارفين بالله محلا للذكر والاستئناس، لما أودع فيهم من الاسرار القدسية والحكم الإلهية، حتى صار القلب ينبوع المعارف ومنهل اللطائف، فهذا هو القلب، وما سواه قالب، لكونه لم يستعمل فيما خلق لأجله، لهم قلوب لا يعقلون بها، لهيت قلوبهم حيث أهملوها ولم يستعملوها، وصارت متروكة نسيا منسيا، خرابا أحاطت بها الوساوس واستولت عليها الغفلات، وانكسف نورها وهدمت صورها،

وصارت لا تعد مع القلوب الانسانية، إنما تعد مع القلوب البهيمية **(إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل)** « الفرقان : 44 » قلب العارف لا يزول اضطراره ولا يكون مع غير الله قراره، فلا يستأنس إلا بالله، فهو مع الله حيث كان، فيسمع منه ويبلغ عنه ويتكلم به.

كان يقول بعض العارفين – رحمة الله عليه – : « قال لي قلبي عن ربي ». وذلك لصفائه، لأن القلب إذا كان منورا فارغا من وجود الغير لا تبقى له واسطة بينه وبين ربه، فيحدثه في سره حديثا تعجز عن إدراكه العقول. ومن هنا قول الشيخ « محي الدين » رحمة الله عليه: « حدثني ربي بارتفاع الوسائط ». وإذا كان القلب من هذا القبيل فلا جرم يكون ينبوعا للحكمة بسبب مجاورته للحكيم، إن لم نقل من بيوته، وقد قلت في هذا المعنى:

فمن بيوت الله قلب منور ☆ فارغ من الأغيار بالله مؤنس
وإن كان قلب العبد غير منور ☆ فهو بيت الشيطان بالغفلة تعيس

ثم قال رضي الله عنه:

وَطَلَبُ الإِرَادَةِ قَبْلَ تَصْحِيحِ التَّوْبَةِ غَفْلَةٌ

قد تقدم في كلام المصنف ما يدل على الأوصاف المتعلقة بالمريد الصادق، فلهذا اعقبها ببيان تصحيح الارادة نفسها لكي تكون على أساس متين، فذكر على وجه التنبيه أن طلبها قبل تصحيح التوبة من بقية الغفلة. والعمل الصادر عن الغفلة معدوم النتيجة، وعليه يطلب من مريد الدخول على الله قبل توجهه أن يعقد عقدة مع ربه،

وأن يقلع مما هو عليه، وأن يجزم بعدم العود إليه، لأن التوبة شرط في التوجه، والشرط مقدم على المشروط، ولا تحصل الإرادة للمريد إلا بوجود التوبة مع توفر شروطها. قلت:

فمن كان مريدا فهذي إرادة ☆ بجعلها نصب عينيه ثم يتخلى
من كل وصف مذموم يفهم من نفسه ☆ وبعد تخليه بالضد يتحلى
يكون عبدا لله في كل حالة ☆ أتيابفرضه ومعتبر النفلا
حتى يكون الحق سمعه وبصره ☆ لسانا ونطقا واليدين كذا الرجلا
وليمت قبل أن يموت ويحي بربه ☆ وما كان بعد الموت ذاك هو النقلا
وليحاسب نفسه بنفسه قبلها ☆ وليكن نائب الحق بنفسه أولى

ولا ينبغي للمريد أن يتقدم لشيء حتى يؤسس ما قبله، واليقظان لا يخفى ذلك عليه لقول « الشريشي » في رائيته:

ومن بعده الحال الذي هو يقظة ☆ وورد يرد الكسر في غاية الجبر
تشاهد انحاء النجاة فتنتحي ☆ على ثقة ما ليس بالمسلك الوعر
فيبدو مقام التوب وهو ممهد ☆ فدونك واقرع بابه قرع مضطر

ولا تستبعد يا أخي مقام الإرادة ولا الولاية نفسها، فما بينك وبينها إلا مجرد التوبة، فإذا أنت محبوب عند الله، تجد ذلك في كتاب الله (**إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**) « البقرة : 222 »

فتطهر - بارك الله فيك - من جنابة الغفلة، ومن رجس العصيان (**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت**) « الاحزاب : 25 » والمؤمنون هم عامة أهل البيت، وأما خاصتهم فلا يخفون على البصير. فانهض - بارك الله فيك - في طلب الله، فإذا صدقت في نهوضك لم يمر عليك زمان قليل إلا وأنت من أولياء الله، خاصة إذا

رجعت له بقلب حزين فكم من منقطع وصل من حينه، والله عز وجل أشفق على العبد من نفسه.

قال بعضهم: رأيت جارية تغني بالطار، فمرت يوما بقاريء يقرأ (**وإن جهنم لمحيطة بالكافرين**) «التوبة: 49» فرمت الطار من يدها وصرخت صرخة غشي بها عليها، فلما أفاقت كسرت الطار وأخذت في العبادة والاجتهاد حتى شاع ذكرها، فدخلت عليها يوما فكلمتها في الرفق بنفسها، فبكت وقالت: ليت شعري أهل النار من قبورهم كيف يخرجون، وعلى الصراط كيف يعبرون، ومن أهوال يوم القيامة كيف يخلصون، وللحميم كيف يجرعون، ولتوبيخ المولى كيف يسمعون. ثم سقطت إلى الأرض مغشية، فلما أفاقت قالت: مولاي وسيدي عصيتك وأنا غضة رطبة، وأطعتك وأنا يابسة خشبة، أتراك تقبلني آه! كم من فضيحة تكشفها القيامة غدا. ثم صرخت وبكت، فلم يبق أحد في المجلس إلا غشي عليه من شدة ما صنعت بنفسها، ثم أنشدت تقول:

أما والذي قد قدر البعد بيننا ☆ وعذبني بالشوق وهو شديد
وخصكم بالصبر دوني وخصني ☆ بحزن عليكم يبتدي ويعيد
وصبرني مهما شممت نسيمكم ☆ أشد لقلبي راحتي وأميد
لقد ذاب قلبي من دموع عليكم ☆ على أنه في النائبات جليد
فيا ليت شعري هل عليَّ ما لقيته ☆ وكابدت من جور الفراق مزيد
لئن عاد ذاك الوصل أو عاد بعضه ☆ وملتم إليه إنني لسعيد
على أنها الأقدار قد تبعد الفتى ☆ قريبا وقد تدنيه وهو بعيد

وقد علمت أخي أن أبواب التوبة لم تغلق إلا على من غلقها بيده، فاطرقها بارك الله فيك بأنامل الندم، وارجع على نفسك، إلى متى

هذا الانهماك؟ كم من واعظ نصحك. ومن النصائح ما قيل:

إلى متى أنت باللذات مشغول ☆ وأنت على كل ما قدمت مسؤول
في كل يوم ترجو أن تتوب غدا ☆ وعقد عزمك بالتسويف محمول
أما يرى لك فيما سر من عمل ☆ يوما نشاط وعما ساء تكسيل
فجرد العزم إن الموت صارمة ☆ مجرد بيد الآمال مسلول
واقطع حبال أمانيك التي اتصلت ☆ فإنما حبلها بالزور موصول
انفقت عمرك في مال تحصله ☆ وما على اثم منه محصول
ورحت تعمر دارا لا بقاء لها ☆ وأنت عنها وان عمرت منقول
جاء النذير فشمر للمسير بلا ☆ مهل فليس مع الانذار تمهيل

وإياك أن تفهم أيها المريد أن التوبة مطلوبة من المنهمك في المعاصي دون غيره، نعم تلك توبة العامة. وهنالك توبة تطلب من المريد حالة توجهه إلى الله على أي حالة كان، ولو لم يعص الله عز وجل، فوصفه لنفسه بعدم العصيان هو العصيان نفسه، فتتعين منه التوبة. وكلما رأيت لنفسك أهلية للوقوف مع الله فأنت بعيد عنه، لم تصح لك الارادة حتى لا يبقى لك أدنى شيء تستند إليه.

ذكر الشيخ «أبو طالب» - رضي الله عنه - تفسير بعض العارفين في قوله عز وجل: **(أمن يجب المضطر إذا دعاه)** **«النمل: 62»** المضطر هو الذي يقف بين يدي مولاه ويرفع يديه بالمسألة إليه، فلا يرى بينه وبين الله حسنة يستحق بها شيئا. فيقول: هب لي مولاي بلا شيء. فتكون بضاعته عند مولاه الإفلاس، ويصير حاله مع كل الأعمال الإياس.

وعن الشيخ «أبي الحسن الشاذلي» - رضي الله عنه -: «إذا

أردت الدعاء، فقدم إساءتك بين يديك، وقل: يا رب بلا شيء، تجد الإجابة طوع يديك».

فإذا قرعت بابه على هذا الوصف يفتح لك الأبواب، ولا يكون بينك وبينه حجاب، ويقبل معذرتك ويقيل عثرتك.

وقال «ذو النون المصري»: حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت حتى لا يكون لك قرار، ثم تضيق عليك نفسك كما أخبر الحق عز وجل: (**حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا، إن الله هو التواب الرحيم**) «التوبة: 118».

ومنشأ هذا كله اليقظة، كما أن طلب الإرادة قبل تصحيح التوبة من الغفلة واجب، وعليه فإن التوبة ليست هي مطلوبة إلاّ في حق من أراد الانخراط في سلك هذه الطائفة المباركة، بل هي واجبة على كل فرد، وإضافتها للمريد من باب إضافة الصفة للموصوف، إذ لا يكون مريدا إلا إذا وجدت فيه شروطها، وإلا فهو معرض كغيره، فكان أساس الارادة وجود التوبة:

(**أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار**) «التوبة 109».